عتاب الأصدقاء في عيون الشعراء في العصـــــــر العـــباســي

دراسة تحليلية

دكتور

علاء فؤاد عبد الفتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمـــــين العفو الغفــور الرحيم القائل في كتابه الحكيم :{ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**} (١) .

والقائل لرسوله الكريم { **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**} (٢) .

ونصلي ونسلم على سيدنا محمد الرحمة المهداة والنعمة المسداه الذى ضرب أروع المثل في العفو والصفح والغفران والذي استعتب ربه فأعتبه حين قال (**لك العتبى حتى ترضى**) .. وبعد ،

فهذا بحث يدور حول ظاهرة العتاب بين الأصدقاء في العصر العباسي ، وهو موضوع اجتماعي هام لأن مهمته علاج النفوس وتضميد الجراح ودوام الود بين الناس .

وقد كثرت الأقوال بين مؤيد للعتاب ومعارض له ولكل حججه وبراهينه التى يسند إليها ، وقد عرضنا وبسطنا القول في ذلك ثم رجحنا ما اخترناه . ومن ثم ، فبحثنا يتكون من ثلاثة مباحث وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع التي استعنت بها خلال البحث .

فالتمهيد تناولت فيه المفهوم اللغوي لكل من العتاب والصداقة

---

(١) سورة آل عمران : من الآية (١٣٤) .

(٢) آل عمران : الآية (١٥٩) .

وكان **المبحث الأول:** بعنوان من صور العتاب في الشعر العربي وقسمته قسمين تناولت في احدهما مفهوم كل من العتاب والصديق.وعرضت في الثاني لبعض صور العتاب في الشعر العربي بالشرح والتحليل والنقد .

أما المبحث الثاني: فتناولت فيه عتاب الصديق في الشعر العباسي ومظاهره ، وتتضمن ثلاث نقاط :

أ- عتاب رقيق .

ب- عتاب عنيف.

ج- عتاب بين العنف والرقة .

وقد بينت في هذا المبحث طرائق الشعراء العباسيين في العتاب ، حيث كان لكل شاعر طريقته وأسلوبه في عتاب أصدقائه فمنهم من مال إلى العنف والخشونة بهدف الانتصاف لنفسه ، ومنهم من آثر الرقة والبعد عن الشدة والرعونة استبقاء للود ، بينما رأى آخرون الجمع بين هذا وذاك أعنى الشدة والرقة في عتابهم لأصدقائهم

وأما المبحث الثالث: فكان بعنوان آراء الشعراء والنقاد في عتاب الصديق في الشعر العباسي ، ورأيناهم على ثلاثة مذاهب فريق **مؤيد** للعتاب مطلقا وفريق **معارض** وفريق **مؤيد في تحفظ** ،

وكان لكل حججه وبراهينه التي يستند إليها..وقد أدلينا بدلونا في الدلاء حيث ناقشنا هذه الآراء وذكرنا رأينا في تلك القضية .

وفي **الخاتمة** ذكرت خلاصة هذا البحث ونتائجه ،ثم قمت بثبت المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها أثناء رحلة البحث .

وإني لأرجو من الله العلى القدير أن ينال هذا البحث الإعجاب والقبول كما أسأله التوفيق والسداد إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

المبحث الأول

من صور العتاب في الشعر العربي

أولا: مفهوم العتاب والصداقة في اللغة :

أ - مفهوم العتاب :

(عتب) عليه وجد ، وقال الخليل : (العتاب) مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة (عاتبه معاتبة وعتاباً) و(أعتبه) سـره بعدما ساءه وهو (معتب) راجـع إلى الإساءة و(استعتب) و(أعتب) بمعني ، واستعتب أيضاً بمعنى طلب أن يعتب تقـول : (استعتبه فأعتبه) أى استرضاه فأرضاه .. (١)

ويقولون أعطاني العتبى ، أى أعتبني ، ولك العتبى أى أعطيتك العتبى ، والتعتب والتعاتب والمعاتبة تواصف الموجدة .

وقال بعضهم ما رأيت عند فلان عتباناً ، إذا أردت أنه أعتبك ولم تر لذلك بيانًا . (٢) .

ب - مفهوم الصداقة :

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: المجلد الرابع ص ٢٢٦ ومـا بعـدها ط / دار الجيل بيروت الطبعة الأولى (١٤١١ هـ / ١٩٩١م) .

(٢) مختار الصحاح : لأبى بكر الرازي : ط / مكتبة لبنان (١٩٨٦م) ص ١٧٣ مادة (ع ت ب)

جاء في لسان العرب[١] لابن منظور أن الصداقة من الصدق ، والصدق نقيض الكذب ، وبهذا تكون الصداقة هي من صدق النصيحة والإخاء ، والصديق هو المصادق لك ، وقد يقال للواحد والجمع والمؤنث صديق ،

وفي معجم مقاييس اللغة [٢] لابن فارس نقرأ أن " الصاد والدال والقاف أصل يدل على قوة في الشيء قولاً وغيره ، من ذلك الصديق ، وخلافاً للكذب ، سمى لقوته في نفسه ، ولأن الكذب لا قوة له ، هو باطل .. والصديق: الملازم للصدق .. والصداقة مشتقة من الصدق في المودة ..." .

وقد بيّن أبو هلال العسكري [٣] أن المراد بالصداقة " اتفاق الضمائر على المودة .." ووضح الفرق بين الصاحب والقرين ، إذ تفيد الصحبة انتفاع أحد الصاحبين بالآخر ، ولهذا يقال للآدميين خاصة ، فيقال : صحب زيد عمراً ، ولا يقال : صحب النجم النجم ، أما المقارنة فتفيد قيام أحد القرينين مع الآخر ، وجريانه على طريقته وإن لم ينفعه ،ومن ثم قيل : قران النجوم ، وقيل للبعيرين يشد أحدهما إلى الآخر بحبل قرينان [٤] .

---

(١) لسان العرب : الجزء السابع ، ط / دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة(١٩٩٩م) ، ص ٣٠٧ - ٣١٠ .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق / عبد السلام هارون ، المجلد الثالث ط / دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٤١١ هـ /١٩٩١م) ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٣) الفروق اللغوية : تعليق : محمد باسل عيون السود ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولي (١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠م) ص ٣١٩ .

(٤) راجع المرجع السابق : ص ٣١٨ .

ويذكر أبو حيان التوحيدي [١] أن الصديق لفظ مشتق من الصِّدق ، وهو خلاف الكذب ، أو من الصَّدْق ، حيث يقال : رمح صَدْقٌ ، أى صلب ، وعلى الوجهين يكون الصديــق صادقاً (أى غير كاذب) إذا تحدث ، ويكون صدقاً (أى صلباً جاداً) إذا عمل.

وهكذا نرى أن المادة اللغوية للصديق (ص . د . ق) تدور في المعاجم اللغوية العربية على اختلافها ، حول الصدق وعدم الكذب والقوة والصلابة ".

هذا، وقد وردت لفظة (الخليل) بدلاً من الصديق في القرآن الكريم في أكثر من موضع حيث يقول الله تبارك وتعالى : { **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا(٢٦)وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً(٢٧)يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً(٢٨)لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولا**} [٢] .

وقال أيضاً :{ **الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**} [٣]

وإذا كان أبو هلال العسكري قد فرّق بين الصاحب والقرين ، كما مر بيانه ، حيث ذكر أن الصحبة خاصــة بالآدميين ، بينما المقارنة تختص بغيرهم ، فإن القرآن الكريم عبر بالقرين عن الشخص في أكثر من موضع ، حيث قال الحق جل وعلا : { **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ**

---

(١) الصداقة والصديق : لأبى حيان التوحيــدي ، ص ٩٤ ط / مكتبــة الآداب بالقــاهرة (١٩٧٢م) تحقيق / على متولي صلاح .

(٢) سورة الفرقان : الآيات ٢٦ – ٢٩ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٦٧ .

إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(٥١)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(٥٣)قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ..} [(١)] .

وقال جل شأنه : **{ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ[(٢)]}**

وقال أيضاً :

{ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ(٢٣)أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ(٢٤)مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ(٢٥)الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ(٢٦)قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(٢٧)قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ} [(٣)] .

وهكذا استعمل القرآن القرين بمعنى الصاحب ، دونما تفريق أو تمييز ، فالقرين هو الصاحب ، والعكس صحيح ، كما أن الخليل بمعنى الصديق وكذا الجليس .

وعلى أية حال ، فالصديق هو الحبيب الذي تشترك نبضات قلبه مع نبضات قلب صديقه ، فيتحدان في الوجدان ، ويتعاطفان في شتى الأحوال .

---

(١) سورة الصافات : الآيات ٥١ – ٥٤ .

(٢) سورة فصلت : الآية ٢٥ .

(٣) سورة ق : الآيات : ٢٣ – ٢٨ .

ثانيا :من صور العتاب في الشعر العربي :

لم يكن العتاب فنا شعريا قائما بذاته إذ أن الأغراض الشعرية التي ذاعت وشاعت وانتشرت منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الأموي تنحصر في الأغراض التالية الفخر والحماسة والغزل والمديح والهجاء والحكمة والاعتذار في الجاهلية ، وبقيت هذه الأغراض في العصر الإسلامي مع التغيير الذي أحدثته التعاليم الإسلامية إضافة إلى شعر الفتوحات الإسلامية ، وفي العصر الأموي وجدنا نفس الأغراض إضافة إلى شعر الأحزاب السياسية وشعر النقائض والغزل العذري ، وكما نرى أنه ليس من بين هذه الأغراض جميعها فن العتاب الذي لم يظهر كفن مستقل بذاته – وخاصة عتاب الأصدقاء – إلا بدءا من العصر العباسي .

وعلى الرغم من ذلك فانه يمكننا رصد صور ذلك العتاب عند بعض الشعراء لنقف على طرائق ذلك الفن وخصائصه وأثره في النفوس وأنه كان النواة الأساسية لمن جاء بعدهم .

هذا وقد تنوع العتاب في الشعر العربي القديم فن عتاب بين العشاق وهو أجل من أن يحصي أو يحصر وهو معروف ويدخل في فن الغزل ،إلي عتاب الأصدقاء إلي عتاب الأهل والخلان إلى العتاب الذى يكون بدافع شخصي ...

فمن عتاب الأصدقاء قول المثقب العبدي [١] :

أفاطـم قبـل بينك متعـيني ومنعك مـا سألتك كأن تبيني

---

(١) المفضليات : قصيدة رقم ٦ ، ص٢٩٢ .

فلا تعـــدي مـــواعد كاذبـــات تمـــر بهـــا ريـــاح الصيف دونـــي (١)
فانـــي لـــو تخالفنـــي شـــمالـــي خلافـــك مـــا وصـــلت بهـــا يمينـــي (٢)
إذا لقطعتهـــا ولقـــلـــت بيـــنـــي كـــذا أجتـــوي مـــن يجتـــوينـــي
فســـل الهـــم عنـــك جذات لـــوث عذافـــــرة كمطـــرقـــــة القيـــون (٣)
بصـــادقـــة الـــوجيف كان هـــــرا يبـــاريهـــــا واخـــــذ بالوضـــين (٤)
إذا مـــا قـــمـــت أرحلهـــا بـــلـيل تأوه آهـــــة الرجـــل الحزيـن (٥)
تقـــول إذا درأت لهـــا وضـيـني أهـــــــذا ديـنـــه أبدا ودينـي (٦)
أكل الدهـــــر حـــل وارتحـال أمـــا يبقـــى علـــى ومـــا يقيني
إلى عمـــرو ومـن عمـــرو أتتني أخي النجـــدات والحـــلم الرصين
فإما أن تكـــون أخـــي بحـــــق فاعـــــرف منك غثـــي من سميني (٧)
وإلا فـاطـــرحني واتخـــذنـــي عـــــــدوا أتقيـــك وتتـــقيـنـي

فالشاعر يعاتب صديقه بتلك القصيدة التي افتتحها بالغزل ووصف الناقة على عادة الجاهليين ، والحق يقال إن ذلكم الغزل كان شديد الصلة بالموضوع الأساسي وهو العتاب ، حيث بدأ بعتاب صاحبته عن صدها وخلفها الوعد ثم اخذ في وصف الناقة ثم شرع في عتاب صديقه عتابا تردد بين اللين والشدة ، فقد بدأ الشاعر أول الأمر هادئا ،ثم اخذ عابه يميل إلى الشدة والحسم كما رأينا في البيتين

---

(١) خص الشاعر رياح الصيف لأنها لا خير فيها.

(٢) خلافك : تعني مخالفتك.

(٣) اللوث : الشدة . العذافرة : الشديدة القوية . القيون: الحدادون

(٤) الوجيف : السير السريع . يباريها .يسابقها . الوضين للرحل : كالحزام للسرج ، يريد كأن هرا يناوشها فهي تبغي النجاء منه.

(٥) أرحلها :أضع عليها الرحل .

(٦) درأته : شدت به رحلها . الدين : العادة والدأب.

(٧) الغث والسمين هنا بمعنى الغش والنصح .

الأخيرين ،فهو لا يرضى بأنصاف الحلول ، حيث خير صاحبه إما أن يكون صديقا مخلصا صادقا وفيا وإما أن يكون عدوا ظاهرا ومن ثم يحذره ويتقيه، وكأنما يتهمه بالتلون والنفاق ، ولكن في نفس الوقت يتبين من الأبيات شدة تمسك الشعر بصديقه ، الذي أثنى عليه بأنه صاحب المروءة والنجدات ، كما انه ذو وحلم رصين عقل رزين .

ومن عتاب الأهل والأقارب قول طرفة بن العبد [1] في معلقته يعاتب ابن عمه :

فما لـي أراني وابن عمـي مالكـا متـى أدن منـه ينأ عنـي ويبعد

يلوم ومـا أدري عـلام يلـومني كما لامني في الحي قرط بن معبد

حيث يتساءل الشاعر في حسرة وأسى بالغ فمالي أراني وابن عمي كلما تقربت منه تباعد عني فضلا عن لومه الدائم لي دون أن أدري السبب لهذا الملام وكأنه رجل غريب لا يمت له بأية صلة .

ثم يبين طرفة جفاء ابن عمه عليه ، ويأسه من كل خير رجاه لديه ، ولم يكن ذلك لذنب جناه سوى انه طلب انه طلب ابل أخيه ان كان يعتبر ذلك ذنبا حيث يقول:

---

(١) هو عمرو بن العبد بن سفيان بن سعيد بن مالك بن بكر بن وائل الملقب بطرفة بالتحريك ، عاش يتيما ونشأ في كنف خاله المتلمس ، فأبى أعمامه أن يقسموا ماله، وظلموا حقه لأمه وردة وحرم من ارث والده ، ترى في بيئة شاعرة حيث كان المرقش الأكبر عم والده والمرقش الأصغر عمه وكان المتلمس خاله كذلك كانت أخته الخرنق شاعرة أيضا قتل شابا في هجر بالبحرين بإيعاز من الملك عمرو بن هند الذي كان قد هجاه طرفة ، سئل لبيد عن أشعر الناس : فقال الملك الضليل ن ثم سئل ثم من قال : الشاب القتيل ، يعني طرفة ، وللشاعر ديوان شعر مطبوع ، ت نحو ٦٠ ق ه /٦٥٤ م ، راجع ترجمته في طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ط/ دار المعارف بمصر شرح الأستاذ محمود محمد شاكر ص١١٥، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٩٣/٦ ، وشرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها للشنقيطي ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت ص١٤ وما بعدها .

وأيأسني مـــن كل خـــير طلبتـه كانا وضعـناه علـــى رمس ملحد [١]

علـــى غير ذنب قلته غـــير أنني نشـــدت فلم أغفل حمولة معبد [٢]

ويستمر طرفة في عتابه مذكرا ابن عمه بالصلة القوية التي تجمع بينهما ، وهى صلة القرابة لحمة النسب ، مؤكدا له انه ناصره باللسان والسنان ، مخبرا إياه أن مما زاده أسفا على حاله أن الظلم آت من جهة قرابته ، مما زاد من وقعه على نفسه .. وكنه على الرغم من ذلك كله فانه باق على العهد مقيم على الود ، شاكرا له على كل حال إذ يقول :

وقربت بالقربى وجدك انني متى يك أمـــر للنكيشة أشهـــد [٣]

وان أدع للجلى أكن من حماتها وان يأتك الأعداء بالجهد ا جهد [٤]

وان يقذفوا بالقذع عرضك اسقهم بكأس حياض الموت قبل التهدد [٥]

بلا حدث أحدثته وكمحـدث هجائي وقذفي بالشكاة ومطردي [٦]

فلو كان مولاى امرؤ هو غيره لفرج كربي ،أو لأنظر ني غـدي [٧]

ولكن مولاى امرؤ هو خانقي على الشكر والتسال أو أنا مفتـدي [٨]

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند [٩]

فدرني وخلقي إنني لك شاكر ولو طل بيتي نائيا عند ضرغـــد [١]

---

(١) الرمس:. ألحدت الرجل القبر : جعلت له لحدا .

(٢) نشدت: طلبت ، الإغفال : الترك . الحمولة : الإبل التي تطيق الحمل عليها ، معبد :أخوه

(٣) النكيشة : المبالغة في الجهد وبذل أقصى الطاقة .

(٤) الجلى : الخطة العظيمة

(٥) القذع : الفحش في القول . العرض : موضع المدح والذم من الإنسان .

(٦) مطرد بمعنى الاطراد . وأطردته جعلته طريدا

(٧) فرج الأمر : كشفه . الانظار : الإمهال .

(٨) خنقت الرجل خنقا : عصرت خلقه . التسال : السؤال

(٩) مضاضة : غلظة وفظاظة ووقعا شديدا وألما .

وهو كما ترى عتاب رقيق باسم من شأنه أن يأسر النفوس، ويأخذ بمجامع القلوب .

ولعل من أبرز صور العتاب في الشعر العربي القديم قول المقنع الكندي يعاتب قومه ، ويتحدث عن بعض القيم التي كان يعتز بها الشاعر العربي القديم ، حيث يقول :

يعاتبني في الدين قومي وإنما ديونى في أشياء تكسبهم حمدا
أسد به ما قد أخلوا وضيعوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا
وفي جفنة ما يغلق الباب دونها مكللة لحما مدفقة ثردا (٢)
وفي فرس نهد عتيق جعلته لبيتي ثم أخدمته عبدا (٣)

وان الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم وان هدموا مجدي بنيت لهم مجدا (٤)
وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وان هم هووا غيى هويت لهم رشدا
وان زجروا طيري بنحس تمر بي زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
لهم جل مالي إن تتابع لي غنى وان قل مالي لم أكلفهم رفدا (٥)

واني لعبد الضيف ما دام نازلا وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

---

(١) ضرغد : جبل .

(٢) الجفنة : القصعة وهى إناء كان يوضع فيه الطعام، مكللة لحما : يزين اللحم أعلاها مدفقة ثردا : تمتلئ به حتى يفيض .

(٣) الفرس النهد : القوي العتيق من الخيل : الأصيل .

(٤) وفر : حفظ .

(٥) جل المال : أكثره . الرفد : العطاء شيمة : صفة

فالشاعر يعاتب قومه هذا العتاب الباسم الرقيق ، الذي يأسو الكلوم ويضمد الجراح ويبرز القيم والشيم العربية الأصيلة ، بعد أن لامه قومه وعاتبوه على كثرة ديونه وإتلافه ماله ، وقد وضح لهم في رده عليهم وعتابه لهم أن بذل المال وديونه التي لحقت به كانت من أجل رفعة شأنهم وإبراز مكانتهم بين الناس ، وقد قام بهذا الدور حين تخلى قومه عن القيام به حيث اقتضاه واجبه بوصفه رئيسا لهم وسيدا فيهم أن يتحمل هذا العبء من اجل مجد القبيلة وشرفها والحفاظ على سمعتها بين الناس، وتتجلى مظاهر كرم الشاعر كما ذكرها هو في إطعام الطعام ،وفتح بابه لكل القاصدين ، وكذلك في شراء الخيول القوية التي يعدها إعدادا من اجل حماية قومه إذ أن الخيل كانت رمزا للقوة في ذلك العصر .

وتلاحظ دقة الشاعر في اختيار كلماته مثل (أسد ، أخل ، ضيع ، ثغور ، حقوق ، أطاق ، ...) وغيرها من الألفاظ التي اختارها الشاعر بعناية فائقة لتكشف عن مدى تقصير قومه في واجبهم من ناحية ، كما تكشف عن مدى الجهد والمشقة التي عاناها في سبيل القيام بتلك الواجبات والحقوق من ناحية أخرى .

وقد برع الشاعر في عتابه من خلال عرضه لهذا التناقض بين موقفه من قومه وموقفهم منه عن طريق بعض المقابلات الصريحة التي تتمثل فيما يلي :.

- الهدم والبناء ، فهو يقيم مجدهم وخلد ذكرهم بين الناس بينما هم ينالون من مجده ويعمدون إلى تقويضه .

- الحفظ والضياع ، فبينما هو يحفظ غيبتهم وهيبتهم ويقوي شوكتهم ، إذا بهم يغتابونه ويذيعون أسراره في كل واد وناد .
- الخير والشر ، فانه يرجو لهم كل خير ورشاد وهدي ويعمل جاهدا من اجل تحقيق ذلك ، ولكنهم يتمنون له كل الشرور والغي والضلال ، فشتان بين ما يحبه لهم وبين ما يكنونه له.
- العطاء والمنع ، حيث يعطيهم من ماله في حال الغنى والوفرة بينما يمتنع عن طلب مدد منهم عند الفقر والعوز .
- وإجمالا فان كل أمنية شريرة منهم تقابلها أمنية خيرة منه ، وكل عمل يضره ، يقابله عمل ينفعهم .

ونلحظ أن الشاعر برع في عرض القضية من أول وهلة في القصيدة حين قال : (**يعاتبني في الدين قومي**)بتقديم الجار والمجرور ، مما أفاد أن العتاب يوجه إليه في الدين خاصة وأنه لا يعاتب في شيء آخر ، وكأنه يؤكد بذلك أنه رجل كامل.

وحين عمد إلى بيان السبب فيما أصابه من دين استعمل أسلوب القصر ، ليؤكد أن ديونه تنحصر فيما يضمن لقومه السمعة الطيبة والذكر الحسن ويتكفل لهم بالمحامد بين الناس ، وكما هو معروف ان القصر كما يفيد إثبات شيء فانه ينفي شيئا أخر فإذا اثبت أن العتاب بسبب الدين ، نفى أن يكون هناك عتاب بسبب شيء اخرر وإذا قصر الدين على ما يكسب قومه الحمد واثبت ذلك ، فقد نفى أيضا أن تكون الديون قد أصابته عن أي طريق آخر .

وهكذا نجد يعاتب قومه ذلك العتاب المشوب بالأسى والحسرة والألم . لأنه في الوقت الذي يريد فيه حياتهم ويسعى ممن

أجل تحقيق هذه الغاية ، يجدهم يفعلون عكس ذلك .. وبراعة الشاعر وحكمته وحنكته وبلاغته وسيادته مكنته من معالجة هذا الأمر بمثل هذا الأسلوب البارع المؤثر في النفوس ليكسب ود قومه ويستميلهم نحوه.

وقد صور عمرو بن معد يكرب مثل هذا حين قال :

أريد حياته ويريد موتـــي عذيرك من خليلك من مراد

ومن صور العتاب الذي كان وراءه دافع نفسي هذه الأبيات لجليلة بنت مرة البكرية [١] ، وهى أخت جساس بن مرة قاتل زوجها كليب بن ربيعة التغلبي ،ويذكر الرواة أنه بينما كانت جليلة في مأتم زوجها كليب تبكيه ، قالت لها أخت كليب : يا هذه اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ، وشيعتها بقولها حين خرجت : " رحلة المعتدي وفراق الشامت " فردت عليها جليلة قائلة : " وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها ؟ أفلا تقولين نفرة الحياء وخوف الاعتداء" ثم أنشأت تقول :

يا ابنـــة الأقوام إن لمـت فـلا تعجلي باللـــوم حتى تسألي
فإذا أنـــت تبينـت الـــذي يوجب اللـــوم فلومـــي واعذلي
إن تكن أخـت امرئ ليمت على جزع منهـــا عليـــه فافعـلي
يا نسائـي دونكن اليـوم قـــد خصني الدهر برزء معضـــل

---

(١) هى جليلة بنت مرة بنت ذهل بن شيبان من بني بكر ، وهى أخت جساس بن مرة قاتل زوجهـــا كليب بن ربيعة التغلبي ، فكان سببا في اشتعال حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب ، ولا نجـد لجليلـــة ذكرا قبل مصرع زوجها وطرده من مأتمه ، ولعل هذا من الأمور الطبيعية في ذلك العصـــر إذ أن العصـــر الجاهلي قد ضن علينا بأخبار الكثير من الشعراء الرجال ، ومن ثم فلا عجب أن تضيع أخبار هذه الشاعرة

مسني فقد كليب بلظى من ورائي ولظى مستقبل
جل عندي فعل جساس فيا غمة للدهر ليست تنجلي
فعل جساس على وجدي به قاطع ظهري ومدن أجلي
درك الثائر شافيه وفي مدركي ثأري ثكل المثكل
يا قتيلا هدم الدهر به سقف بيتي جميعا من عل
هدم البيت الذي استحدثته وانثنى في هدم بيتي الأول
ليس من يبكيه يوما واحدا مثل باكي الدهر حتى ينجلي
إنني قاتلة مقتولة فلعل الله أن يلطف لي

ويبدو من خلال هذا العتاب أن الشاعرة كانت في حال يرثى لها حيث كانت ممزقة الأوصال بين أخيها القاتل وبين زوجها المقتول وبين لوم أهل زوجها لها وطردها ، فجو النص مشحون بالتوتر وقد انعكس هذا الجو على القصيدة، وقد وضحت جليلة أشد الناس حزنا ووجدا على زوجها لأنها ستبكيه ابد الدهر بخلاف باقي النسوة اللاتي سيبكينه يوما واحدا ، وكم تمنت أن لو كان القاتل غريبا غير أخيها لتأخذ بثأره لتشفى غليلها ، ولكنه تعلم علم اليقين أنها إذا رمت سهما فانه سيرتد إليها ، وتؤكد للنسوة وللناس أجمعين أن مصابها مزدوجا وان رزءها عظيما لأنه هدم بيتها الجديد تعني بيت زوجها ، وفي نفس الوقت هدم بيتها القديم وتقصد بيت أبيها الذي تربت فيه ، فهي كما نرى بين عاطفتين متناقضتين لأن لوعتها على زوجها المقتول لا ينبغي الشك فيه كما أن إشفاقها على أخيها القاتل شيء طبيعي لا ينبغي أن تلام عليه، ولكنها في نفس الوقت تقدر مي شناعة فعل أخيها الذي قصم ظهرها وأدنى أجلها وجعل النار من ورائها ومن أمامها ولا سبيل الي الفرار منها .

وهكذا تجد الشاعرة نفسها ، وقد أصيبت برزء خاص دون جميع النسوة ، فحزنها يختلف عن حزن الآخرين الذين يبكون بكاء عابرا ليوم أو يومين ، بينما هي تبكي ليوم مقبل ينتظر أخاها ويتهدده فضلا على أن بكاءها على زوجا دائم لن ينقطع أبد الدهر .

وقد أجادت الشاعرة حين صورت نفسها في قولها ك(إنني قاتلة مقتولة) فالمدرك لثأره قد يشفي غليله من قاتله ولكنها لن تتمكن من إذهاب حزنها وأخذ ثأرها ، لأن في إدراكها لثأر زوجها مصيبة أخرى فهي بذلك قاتلة مقتولة ، قاتلة حينما تفكر في أمر أخيها جساس ، ومقتولة عندما تفكر في أمر زوجا كليب ، فهي الظالم والمظلوم والمعتدي والمعتدى عليه مما زاد الأمر تعقيدا وتناقضا وبالتالي حزنا وهما وألما ، وليس من سبيل للخلاص إلا بأن يتجلى عليه برحمته وينقذها من هذا العذاب الأليم .

ونلاحظ على ذلك العتاب – رغم الجو النفسي العصيب – أن الشاعرة لجأت إلى التعقل ومحاولة إقناع الطرف الآخر بخطئه وأنهما في المصيبة سواء ، بل المصيبة عليها أشد وقعا .

ومن صور ذلك العتاب أيضا ما قالته قتيلة بنت النضر بن الحارث من بني عبد الدار تعاتب الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن استوقفته وهو يطوف بالكعبة وكان عليه الصلاة والسلام قد أمر عليا بن أبي طالب بقتل أبيها بعد أن أسر:

أمحمد يا خـــير ضنء كريمة في قومها والفحل فحل معـرق (١)

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيـظ المحنـــق

---

(١) الضنء : الأصل ويروى ضيء بمعنى الولد المعرق الكريم

أو كنت قـابل فديـة فلينفقن بأعـز مـــا يغلو به ما ينفق

فالنضر اقرب من أسرت قرابـــة وأحقـهم إن كان عتـــق يعتـــق

فدمعت عينا الرسول صلي الله عليه وسلم ، وقال : " لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه ". (١)

وهذا العتاب ملؤه الأسى والحزن والاستعطاف والتودد لذا فقد لامس شغاف قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ،وهو الرءوف الرحيم ومن ثم كان بكاؤه وحزنه .

وبذلك يتضح أن صور العتاب في الشعر العربي متعددة ، وأنها ذو أثر فعال في النفوس والقلوب معا ، وان لم ينتظم في قصائد معينه ، أو بنفس الكثرة التي كانت عليها الأغراض الشعـريـة الأخرى ولكنه كان النواة الأولى لفن العتاب بعامة وعتاب الأصدقاء بخاصة على نحو ما سنتبين بعد ذلك.

المبحث الثاني

مظاهر عتاب الصديق في الشعر العباسي

تعددت طرائق الشعراء العباسيين في عتاب الأصدقاء ، فمنهم من سلك سبيل الرقة واللين والهدوء وضبط النفس والاتزان ،ومنهم من مال إلى الغلظة والخشونة والتعنيف في عتابه، ومنهم من جمع بين الأسلوبين ومن ثم نراه هادئا تارة وثائرا تارة أخرى يلين مرة ويقسو مرة ثانية، وفيما يلي بيان ذلك بالتفصيل .

---

(١) الأغاني : ١٥/ ٢٨ .

أ- عتاب رقيق :

أما النوع الأول من عتاب الأصدقاء فهو الرقيق اللين الذي يرمي صاحبه من ورائه إلى استعادة الود والصفاء والألفة ، وتضميد الكلوم، ومن ثم فلا يقسو الشاعر في عتابه أو يحتد على صديقه ، ومثال ذلك قول أبي يعقوب الخريمي [١] يعاتب أحد أصدقائه :

أتعجب مني أن صبرت على الأذى ؟ وكنت امرأ ذا إربة متجملا
فإني بحمد الله لا رأى عاجز رأيت ،ولا أخطأت للحق مَفْصلا
ولكن تدبرت الأمور ، فلم أجد سوى الحلم والإغضاء خيراً وأفضلا
وأقسم لولا سالف الود بيننا وعهد أبت أركانه أن تزيَّلا
وأيامُك الغر اللواتي تقدمت وأوليتنيها مُنعما متطولا
رحلت قلوص الهجر ثم أقتعدتها إلى البعد ما ألفيت في الأرض مَعْملا
وأكرمت نفسي والكرامة حظُّها ولم ترني لولا الهوى متذللا
وعارضت أطراف الصبا أبتغي أخا يعين إذا ما الهمُّ بالمرء أعضلا
أخا كأبي عمر ، وأنى بمثله إذا الحر بالمجد ارتدي وتسربلا [٢]

فالشاعر يصبر على أذى صديقه ، ويجنح إلى الصفح والعلم والإغضاء ، وليس ذلك عن عجز منه في الانتصاف لنفسه أو خطأ منه في رأيه ، إنما هو الرأى الصواب الذى اهتدى إليه

---

(١) الخريمي : هو أبو إسحاق بن حسان ، كان مولى بن خُريم ، وهو من العجم ، شاعر مطبوع ،ت سنة ٢١٢ هـ . راجع / ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة، ص ٧٣١ ، والأعلام للزر كلي ٢٩٤/١ .

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني : ٤٤٠/٢ ..

بعد طول تفكر وتدبر للأمور وتذكر لعهد الأخوة والصداقة الذي أبى الشاعر أن يفرط فيه ؛ لأن صديقه نِعْمَ الصديق ..

ثم أخذ الخريمي يعدد الصفات الحسنة والخلال الطيبة التي يتمتع بها صديقه والتي من أجلها تمسك به وأبقى على حبل المودة والصفاء موصولاً حيث قال :

جزى الله عثمان الخريمي خير ما جزى صاحبا جزل المواهب مُفْضِلا (١)
أخَاً كان إن أقبلتُ بالود زادني صفاءً ، وإن أدبرتُ حنّ وأقبلا
أخا لم يَخُنِّي في الحياة ولم أبت يخوفني الأعداءُ منه التنقلا
إذا حاولوه بالسعاية حاولوا به هضبة تأبي بأن تتخلخلا
يحكمني في ماله ولسانه ويرك ب دوني الزاعبىّ المؤلّلا (٢)
كفى جفوة الإخوان طول حياته وأورث مما كان أعطى وأجزلا
وبات حميدا لم يكدر صنيعه ولم أقْلِه طولَ الحياة وما قلا (٣)
وكنت أخا لو دام عهدك واصلا نصورا إذا ما الشر خَبّ وهَرْولا
فغيرك الواشون حتى كأنما تراني شجاعاً بين عينيك مقبلا (٤)

---

(١) هو أبو عثمان بن خريم المرى من غطفان ، ويقال له خريم الناعم ، وكان قائدا جليلاً ، وسيداً كريماً اتصل به أبو يعقوب إذ كان له ولاء في غطفان ، وصارت بينهما صداقة حميمة .

(٢) الزاعبي : نسبة إلى زاعب ، وهو رجل تنسب إليه الرماح الزاعبية ، المؤلل : المحدد طرفه .

(٣) قلا : أبغضه .

(٤) زهر الآداب للحصري : ص ٤٤١ .

من أجل ذلك كله صبر الخريمي على إيذاء صديقه وجفوته ، وعاتبه عتاباً باسماً ، ولم يرض بالهجر والفراق احتراما لسالف الود بينهما .

ومثاله أيضاً قول البحتري في عتاب أحد أصدقائه كان قد تغير عليه وامتنع عن لقائه بعد أن منّ الله عليه وحباه منزلة عالية وسلطاناً وجاها كبيراً :

يا : فضل " فيم الصدود والغضب ؟ أم فيم حبل الصفـــاء منقضـبُ ؟
أم فيم هجران هائم بكـــــم تقصونه دائبـا ويقتـــــرب ؟
هذا لذنب ، فلن أعود لـــــه ما أعقبت ريح شمألٍ نُكُـــبُ
أم دبَّ لي كاشح فأضرم لـــــي عندك نـارا بالإفك تلتهـــب
يافضل أشمتَّ بي العداة ، وقـــد أعطيتهم فيّ فــوق ما طلبــوا
صدُّك عني وجفـوة حدثـــــت من صاحب غـال وُدَّهُ العطـبُ
كان صديقاً ، فصار معرفـــــة بَعْـدُ ، كذاك القلـوب تنقلـــبُ
إنى لباكٍ عليك ما طرقـــــت عين ، وما فاض دمعهـا السَّـــربُ
بكاء محزونة على ولـــــد لم يغن عنهـا الإشفـاق والحـــدب
أندب حيا ماتت مودتـــــه طـوراً ، وطـورا عليه أنتحـــــب
يا صاحبا لم أخف تغيـــــره ما هكـذا فعـــــل مـن لـه أدبُ
إن حُصل الناس في فعالهـــــم كنت الـذي أصطفى وأنتخـــب (١)

فأنت ترى رقة الأسلوب وانتقاء الألفاظ بعناية فائقة ، فهذه الاستفهامات المتتابعة فيها دلالة على مدى ما أصاب الشاعر نتيجة صدود صديقه عنه من ناحية ، ومدى حب البحتري لهذا

---

(١) ديوان البحتري : المجلد الأول ص ١٣٢ وما بعدها ، شرح حسن كامل الصيرفي طبعة دار المعارف بمصر ، ط ٣ .

الصديق وأمله في عــودة الصفاء بينهما من جديد من ناحية أخري أو قل أنها تحتوي على حزن دفين وحب مكين في آن واحد ، ولم لا وهو الصاحــب الغالي والصديق الحبيب الذى لم يتخيل الشاعر أبداً تغيره عليــه أو ازوراره واحتجابه عنه ونسيان ما كان بينهما من وداد وصفاء ؛ ومن ثم فإنه سيبكيه أبد الدهر بكاء الأم الثكلى التي فقدت وحيدها .

وكان البحتري قد صدر قصيدته هذه بمقدمة نثرية جاء فيها : (١) " .. أستمتع الله ببقائك وأسأله العون على جفائك ، لولا أن الكلام يطول ويكثر ، لكان الإكثار في الشكية ممكنا ، لكنا نقتصر على القليل منــه ، وقد أهديت إليك أبيات معاتبة أتت علــى ما أردنا من الكلام فتدبرها وتفهمها ،وعد إلى ما لم نزل نعرفك به من التفضل ، ولا تدعونك زيادة النعمة من الله عليك إلى الاستخفاف بإخوانك، ولولا أن ترك العتاب في موضع المعاتبــة جفاء ، وداعية إلى القطيعة لكان أحب الأمرين إليّ ترك العتاب لثقله على المذنبين ، أرشدك الله لأفضل الأمور ووفقك لمحابه " .

فالبحتري يهدف من عتابه هذا إلى استرضاء المعاتب ، واستبقاء الود ، وعودة أيام الصفاء بينهما ، ومن ثم اختار ما

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

يتماشى مع غرضه حيث الألفاظ الرقيقة الباسمة والأساليب الحانية التي تأسر القلوب .

ومن ذلك قول الشريف الرضي يعاتب صديقاً له :

يا أبا الفضل والأمـور فنـون ... تبعث الهم والخطوب صروف
وحفاظي كما علمت ولكن ... أنكر الغدر ودي المعروف
إنما الغدر في الرجال أذب ... إن تأملت والوفاء ألوف
صرح الاقتضاء والقول محبوس ... على ما تريده موقوف
ومرادي يقل في جنب نعـ ... ـماك فأين التكرم المألوف ؟
إن تكرمت فالخليل كريم ... أو تمنعت فالملول عنيف
أو يكن أنكر الإخاء قديما ... منك قلب فإن قلبي عروف
أحمد الله إنني ما تقصيت ... وإن الذى طلبت طفيف
فاجعل الآن ما سألتك برا ... إنما البر منزل مألوف
واحتمل سطوة العتاب فخير ... النبع ما مَدَّ متنه التثقيف
وعتابي هزا لعطفك والأغـ ... ـصان ما لم تهزهن وقوف (١)

ويبدو أن الشاعر كان قد سأل هذا الصديق قضاء طلب له ، فأهمله فأرسل إليه هذا العتاب الباسم الرقيق يستنجزه هو بها ، ويؤكد له أن مودته ثابتة في قلبه يحافظ عليها ويراعيها ، وإن نسيها ذلك الصديق .

إن مثل ذلك الكلام الرقيق لا يصدر إلا من نفس رقيقة ورجل سمح ، فطر فؤاده على الوفاء وحب الأصدقاء، أحياء وأمواتا.

---

(١) ديوان الشريف الرضي : ٢ /ص٢٥ وما بعدها .

وقد أكد الشريف نفسه على ذلك في رثائه لأبى الطاهر بن ناصر الدولة ، فقال :

بكيته للــوداد ورُبَّ بــاك عليك من الأقـــارب لا يـود
وإن بكاء من تبكيـه قربـى لدون بكــاء من تبكيـه ود (١)

ويقول في قصيدة أخرى في رثاء أبى طاهر أيضاً :

إن لا تكن ذي الأصول تجمعنا يوماً فإن القلوب مجتمعــة
كم رحم بالعقوق نقطعهـــا ورحم الود غير منقطعــة (٢)

كما يقول الرضي في الصاحب بن عباد :

بيني وبينك حرمتان تلاقتــا نثرى الذي بك يقتدي وقصيدي
ووصائل الأدب التي تصل الفتى لا باتصال قبائل وجـــــدود (٣)

ومن هذا المنطلق كان عتاب الرضي إلى أصدقائه بهدف استبقائهم والحفاظ على مودتهم ، لأنه يعرف للصداقة حقها وللصديق فضلـــه ومكانته ، كما يعرف أن العثور على صديق صدوق نادر في هذا الوجـــود ، ومن ثم آثر ألا يفرط في أصدقائه أبد الدهر ، وعمل على استرضائهم على الدوام .

أليس هو القائل :

إذ العضو لــم يؤلمك إلا قطعتــه على مضض لم تبق لحما ولا دما (٤)

---

(١) المرجع السابق : ٧٣/٢ .
(٢) ديوان الشريف الرضي : ٣٦٦/١ .
(٣) المرجع السابق : ٣٤٣/١ .
(٤) **ديوان الشريف الرضي : ٣٣٠/٢ .**

ومن ذلك أيضا قول أبي فراس الحمداني [١] بعاتب سيف الدولة الحمداني هذا العتاب الذي يفيض رقة وعذوبة وأدبا :

يا سيدا ما تعد مكرمة إلا وفي راحتيه أكملها
أنت سماء ونحن أنجمها أنت بلاد ونحن أجبلها
أنت سحاب ونحن وابله أنت يمين ونحن أنملها
بأي عذر رددت والهة ؟ عليك دون الورى معولها
إن كنت لم تبذل الفداء لها فلم ازل في رضاك أبذلها
تلك المودات كيف تهملها ؟ تلك المواعيد كيف تغفلها؟
تلك العقود التي عقدت لنا كيف وقد أحكمت تحللها؟
أين المعالي التي عرفت بها ؟ تقولها دائما وتفعلها؟
لم يبق في الناس أمة عرفت إلا وفضل الأمير يشملها

فأنت ترى أن أبا فراس يذكر المعاتب بصلة القربى والرابطة القوية بينه وبين أبناء عمومته التي تحتم عليه ألا يتخلى عنهم ، فهم سنده وعونه حيث لاغنى لأحدهما عن الآخر ، فهو السماء وهم النجوم ، وهو البلاد وهم الجبال التي تستقر بهم وتثبت أركانها ، وهوا لسحاب وهم المطر ، وهو اليمين وهم الأنامل .. وهذا الأسلوب أسلوب بلاغي يعرف بالتقابل وهو من أساليب التأثير .

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني :ط / دار بيروت للطباعة والنشر،ص٢٤١ وما بعدها .

فعلى الرغم من أن سيف الدولة تركه في الأسر وعلى الرغم أيضا من انه رد أمه خائبة حين جاءته تطلب فداءه ، فانه مازال يعلق عليه الآمال الكبار ، ولا يزال على سابق ولائه له.

وتلحظ في الأبيات تلكم التشبيهات البليغة **(أنت سماء)** و**(أنت بلاد)** ..... وقد أتى الشاعر بها لإبراز مكانة سيف الدولة لديه واستمالته نحوه وحثه على فدائه . كما نلحظ فيها مدى التوافق والتناغم بين الأشطر الأولى والثانية مما زاد الأسلوب عذوبة ورقة وجمالا وتأثيرا.

وقد أثر ذلك الأسلوب الرقيق الهادئ في البارودي وهو يعاتب صديقا له على إصغائه للوشاة وتعريض مودته للزوال ::

أليس من العدل أن تسمعا فأشكو إليك نمومـا سعى (١)

أطاع له الماء حتى استقى وأمكنه الرعي حتى رعى (٢)

أتاك فأغشيته منزلا رحيباً وأرعيته مسمعا (٣)

فأبدع ما شاء في فرية تأنق في صنعها وادَّعى (٤)

صناع اللسان خلوب البيا ن يخلق من ضحكه أدمعا (١)

---

(١) النمو : صيغة مبالغة من النميمة ، سعى: من السعاية وهى الوشاية ، والاستفهام في البيت للتقرير.

(٢) أطاع له : انقاد له ،الرعي : الكلأ والمرعى ، أمكنه الأمر : سهل عليه ، وفي البيت كناية عن أن المعاتب هو الذى هيأ الفرصة للواشي بقبوله الوشاية وسماعه لها .

(٣) أغشيته منزلا : أنزلته به ، المسمع : االأذن .

(٤) الفرية : الافتراء والاختلاق ، تأنق في الأمر : جوَّده وأحسنه .

حريص على الشر لا ينثنـــي عن القصد ما لم يجد منزعـــا (٢)
يسير مع الرفـــق حتـــى إذا تمكن من فرصـــة أو ضعـــا (٣)
وما كان لولا خلاج الظنـــون ليرغب في القول أو يطمعا (٤)

فالبارودي يهمس في أذن صديقه ويعيب عليه الانصياع للوشاة وتيسير سبل الوشاية للنمام بإصغائه له ، وميله إلى الظنون السيئة ، ومن ثم ، فملام الشاعـــر في المقام الأول ينصب على المعاتب ، وليس على الواشـــي ، ذلك لأنه ساعده في استباحة العهد وقطع الود ؛ حيث يقول :

وليس ملامى علـى مَـن وشـى ولكن ملامى علـــى مَـن وَعَـى

ثم يتساءل الشاعر مستنكرا كيف يمكن للعهد أن يستباح ؟ وللود أن ينقطع بسبب واش ، لا هم له إلا الإفســـاد والتفريق بين القرناء، ويقارن البارودي بين ما يكنه من الوداد لصديقه ، بينما أضاع ذلك الصديق وطوح بكل عرى الصداقة حين أصغى لمن يخدعه ، فيقول :

أيُجمل بالعهد أنْ يُستبـــاح لواشٍ ، وللوُد أنْ يُقطعـــــا ؟
فشتان ما بيننـا فـي الـــودا د ، خل أضاع وخل رعـــى (٥)

---

(١) صناع اللسان : لبق ماهر في الكلام ، خلوب : خداع ، يخلق من ضحكه أدمعا كنايـــة عـــن مهارته في الخداع .

(٢) منزعا : منصرفا ومتحولا .

(٣) أوضع في الفتنة : أسرع إليها .

(٤) خـــلاج الظنـــون : اضـــطرابها ، راجـــع / ديـــوان البـــارودي ٢/٢٢٥ - ٢٢٩ ، ط / دار الكتاب المصري (١٣٦١ هـــ / ١٩٤٢م) .

(٥) شتان : بعد ، أضاع : المقصود أضاع الوداد ، رعى : صان الوداد .

ومن أشرك الناس في أمـره دعته الضـرورة أن يخدعـا

والشاعر يؤكد على أنه يجب على الصديق ألا ينصاع وراء أقوال الوشاة الذين يشعلون نار الحقد والبغضاء بين الناس .

ويختتم البارودي قصيدته هذه بإعلانه أنه ما عاتب صديقه إلا حرصاً على إبقاء مودته خالصة ، وإجلالا لمكانته في فؤاده ، حيث يقول :

فخذها إليك عتابيـــة ترد عصىَّ المنى طيِّعـا (١)

ولولا مكانــك في مهجتـي لما قلت لابن عثار لعا (٢)

وقد استشهدنا بالبارودي لأن الشعر العربي القديم كان له أعظم الأثر في نفسه وبخاصة الشعر العباسي وشعراؤه النابغون أمثال أبي فراس الحمداني وأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء وغيرهم من أعلام الشعراء العباسيين ومن فيضهم ومعينهم كانت مختاراته الشعرية الرائعة التى تنم عن حسه الدقيق وذوقه الراقي.

ب- عتاب عنيف:

وهو العتاب الذي يلجأ فيه صاحبه إلى الشدة والتعنيف في القول بهدف الانتصاف لنفسه ، غير عابئ بما بينه وبين المعاتب من

---

(١) عتابية : قصيدة منسوبة إلى العتاب .

(٢) المهجة : النفس ، العثار : الزلل ، لعا : كلمة يدعى بها للعاثر ، يقولون : لعا لــك : إذا أرادوا الدعاء له بالانتعاش ، والمقصود بابن عثار هنا : صديقه المعاتب كأنه عثر وكبا فهو بعتابه له يرفعه وينعشه.

المودة والألفة التي تحتم عليه التلطف في القول ، ومثاله قول الشريف المرتضى يعاتب بعض أصدقائه :

رضيت بالدون لما لم أجد وزرا ولو وجدت لما أرضيت بالدون
من ذا أعالج إما كاشحا حنقا أو ابتلى بصديق غير مأمون
ما زلت بقيا على الأحوال تجمعنا أطيعه وهو طول الدهر يعصينى
بعدا وسحقا لقوم لا حفاظ لهم كنزت عندهم ودا فملونى
ما زلت فيهم وصولا من يقاطعني ورائشا عندهم من كان يبريني
منوا علي بان لم يسلبوا نسبي سقيا ورعيا لفضل غير مأمون
من كل اخرق مأسور بشهوته مخدع برخاء العيش مفتون
ظنوا وليس لهم فضل يقدمهم إن التقدم في أيدي السلاطين
هيهات ما الفضل إلا ما حبتك به أم الفضائل من عقل ومن دين
ما كان مبتاعهم إلا أخا ندم وليس بائعهم إلا بمغبون

ويبدو الشاعر من خلال قصيدته متبرما من أصدقائه ساخطا على مجتمعه الذي لا يجد فيه خلا وفيا ، مما جعله يقنع بالقليل ويقنع بأمر الله.

ثم يستعرض المرتضي طبائع البشر الذين عايشوه ويوضح أنهم أحد نوعين، فمنهم الكاشح الذي يضمر العداوة ويتظاهر بالمحبة ويدعي المودة ، ومنهم الأصدقاء الذين لا وفاء لهم فهم لا يؤتمنون على شيء حيث يذيعون الأسرار ولا يرعون الوداد ، ولذا فلن يعاشرهم أحد الا مُنى بالخذلان وأَحَسَّ بالجور الشديد والندم الفادح ، بل ودعا عليهم بالقطيعة والهلاك .

ومما زاده ألما أن وفاءه لأصدقائه لا يقابل إلا بكل جحود أو نكران،فبينما هو يصلهم بعطائه ويقدم لهم كل خير ، ويدافع عنهم في كل واد وناد إذا بهم يتمنون له كل شر ويرمونه بالأهوال الجسام .

وقد صحبت الذي بالغي يأمرني وبالذي يدنس الأعراض يغرينـــي
إني لأعجب منه وهو ذو عجب يبيعني قبل أن يلقى ويشريني
يقيه نحري من رام فريسته يوم الوغى هو عمر الدهر يرميني
وكلما أخرجت كفي القذاة له من جفنه بات يشجيني ويقذيني
وكم البيه في ضراء يركبها ولم يكن يوم ساء يلبيني

ان تلك المفارقة بين أخلاق الشاعر وطباع أصدقائه دفعته لان يتمنى أن يعيش منفردا بعيدا عن الناس وويلاتهم بل ويدعو إلى العزلة والانفراد حيث يقول :

عش مفردا غير مقرون فلا جذل الا باني فرد غير مقرون

وقد اتسم العتاب في هذه القصيدة بالشدة والقسوة والعنف وربما كان أقرب إلى الهجاء منه إلى العتاب، فهو ليس عتابا بهدف استبقاء الود واسترجاع أيام الصفاء بقدر ما هو عتاب ينصف النفس ويعدد مثالب العدو ولكن في عبارة موشاة بمنطق القول وجمال التأثير وحسن الأداء وروعة الصور .

ومنه أيضا قول بن عطاء الله [١] ، وكان قد بلغه أن صاحبا له أفشى حديثا أسَرَّ بِهِ إليه ، ولم يطلع عليه غيره ، وجعل يُشَنِّعه على جهة الإشفاق والنصح :

---

(١) هو الشاعر الأديب المصنف راجي بن عطاء الله المصري، كان عطار بالفسطاط ، توفي سنة (٦٠٢ هـ) راجع / الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة لابن سعيد الأندلسي ص ٦٨ ط/ دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة (١٩٧٧م) .

على كل ما قد كان في الود بيننـــا عفاء مدى الأيام غـادٍ ورائـــح
تشنع ما لولاك لم يَبْدُ للعـــدى وتزعم من جهـل بأنك ناصـــح
أفق أيها المغرور لست بلائـــــق بمثلي ، وقد شانتك تلك الفضائح

ومنه قول الماكسيني [١] في عتاب صديق له لم يراع حقوق الصداقة بينما تراه يطالب غيره بمراعاة تلك الحقوق نحوه هو .

إذا كنت لا ترعـى حقوقـــاً لإخوان هم رفعـوا منـارك
وتلزم كل حين أن تُراعـــى ولا ينسى أخو وُدٍ مـــزارك
ونقطع دهرنا تيها وعجبـــاً وتأبى دائمـا إلا اختيـارك
فزادك - مابقيت - الله بعـــداً ولا أدنى على حـالٍ ديـارك

ومنه أيضاً قول إبراهيم بن العباس الصولي يعاتب محمد بن عبد الله الزيات ، وقد تغير عليه بعد أن صار وزيراً :

وكنت أخي بإخاء الزمـــان فلما نبا صرت حربـا عوانـا [٢]
وكنت أذم إليك الزمـــان فأصبحت فيـك أذم الزمانـا
وكنت أعـدك للنائبـــات فها أنا أطلب منك الأمانـا [٣]

وقد علق ابن رشيق على هذه الأبيات بقوله : " وهذا عندي من أشد العتاب وأوجعه " [٤] .

---

(١) هو أبو الحرم مكي بن زيان الماكسيني ، من ماكسين من أعمال سنجار ، كان ضريراً ، اشتغل بفنون العلم ورحل في طلبها ، فقرأ مدة ببغداد وبالموصل ورحل إلى الشام وغيرها واستقر بالموصل ومات بها في شوال سنة ثلاث وستمائة ، راجع / الغصـون اليانعة ، ص ٨٤ .

(٢) الحرب العوان : المستعرة ، التي قوتل فيها مرة بعد مرة .

(٣) العمدة لابن رشيق : ١١٣/٢ .

(٤) المرجع السابق : ٢ /١١٤ .

ومن ذلك العتاب الذى يتسم بالشدة والحدة والتعنيف قول البحتري يعاتب بعض أصدقائه :

أما العداة فقد أروك نفوسهم فاقصد بسوء ظنك الإخوانا
تنحاش نفسي أن أذل مقادة ويزيد شغبي أن ألين عتابا
وكما يَسرُّك لين مسي راضياً فكذاك فاحش خشونتي غضبانا (١)

ففي البيت الأول يتهم البحتري صديقه بسوء الطوية وخبث النية ، لأنه يسيء الظن بغيره ، وفي البيت الثاني اعتداد من الشاعر بنفسه ، أما في البيت الثالث ففيه تهديد ووعيد وهذا كله لا يتناسب مع جو العتاب وخاصة عتاب الصديق الذي يتطلب الرقة واللطف وإثارة المودة حتى يعود الصفاء من جديد بين الأصدقاء .

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق أثرى ، فقصده محمد مسلما فرأى منه تغيرا فكتب إليه : (٢)

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الإثراء منك خلائقا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

ويدخل في ذلك ما قاله (العتابي)(٣) في عتاب المأمون وكان قد وفد عليه، فلم يأذن له لانشغاله ، مما اعتبرها العتابي جفوة منه لجانبه ، فكتب إليه (٤) :

---

(١) ديوان البحتري : ج ٤ ، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي ، ط دار المعارف بمصر ، ط ٣ .

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف للإبشيهي : ٣٧١/١ .

(٣) هو كلثوم بن عمرو بن الحارث التغلبي ، يكنى أبا عمرو ، وكان ممن اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد ، والرسائل الفاخرة ، وكان يحتذى حذو بشار في البديع من أدباء القرن الثاني الهجري أسهم في الحركة العلمية والأدبية إبان ذلك القرن بنصيب كبير .

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب : للحصري القيرواني ٣٨/٢ ، ط دار الكتب العلمية بيروت ، ط أولى (١٤١٧ هـ /١٩٩٧م) .

ما على ذلك افترقنا بسنـــــدا ن ، ولا هكذا عهدنا الإخـــــــاء
لم أكن أحسب الخلافة يـــــزدا د بها ذو الصفاء إلا صفـــــــاء
تضرب الناس بالمثقفة السُّـــمْـ ـر على غدرهم وتنسى الوفـــــاء

قالوا [1] : إنه يعرِّض بقتله لأخيه على غدره ، ونكثه عقد الرشيد ، فلما قرأ المأمون الأبيات ، أمر أن يدخل عليه ، فلما سلم قال له المأمون : يا عتابي ، بلغتني وفادتك فسرتني ، وقد كانت بلغتني وفاتك فساءتني ، وإني لحري بالغم لبعدك ، والسرور بقربك ، فقال : يا أمير المؤمنين لو قُسِّم هذا الكـــلام على أهل الأرض لوسعهم عدلاً وأعجزهم شكرا ، وإن رضاك لغاية المنى ،لأنـــه لا دين ولا دنيا إلا معك ، فسر المأمون بكلامه وقال لـــه : سلني قال : يا أمير المؤمنين يدُك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة ، فأمر له بخمسين ألفا .

ونرى كيف كان العتابي قاسياً في عتابه للمأمون ، حين وجـــه إليه هذه التهم ، من خيانة العهد والغدر وعدم الوفاء للإخاء القديم الذي كان يجمع بينهما قبل تولى المأمون شؤون الخلافة .

هذا بالإضافة إلى رميه إياه بالجفاء وغلظ الطبع ، مما يؤخذ من قوله :

لم أكن أحسب الخلافة يزد د بها ذو الصفاء إلا صفـاء

وقد سلك العتابي هذا النهج في العتاب حين عاتب عمرو بن مسعدة ، وكان قد بلغه أنه ذكره في حضرة المأمون بسوء ، فوجه إليه قوله :

قد كنت أرجو أن تكون نصيـــري وعلى الذى يبغي علىّ ظهيـرى
وطفقت آمل ما يُرجي سيبُـــهُ حتى رأيت تعلقـــي بغـرور
فحفرت قبرك ثم قلت دفنتـــه ونفضت كفي من ثرى المقبور

---

(١) المرجع السابق : ٣٨/٢ .

ورجعت مفتريا على الأمل الـذي قد كان يشهد لي عليك بـزور [1]

وتلمح في الأبيات ثورة العتابي وغضبه لفجيعته في صديقه الذى كان يعده لنوازل الدهر ، ويبلغ الشاعر قمة غضبه في البيتين الأخيرين ، فهو يعلن أنه قد نسى ذلك الصديق تماما وتخلص منه إلى الأبد ونفض يديه من عرى الصداقة التي لم يراعيها ذلك الصديق .

وفي قوله : (ونفضت كفي من ثرى المقبور) كناية عن تخلص الشاعر من صديقه وكأن هذا الصديق أصبح كالثرى الذي يجب على الإنسان أن ينزه نفسه عنه إذا التصقت به يداه .

وبمعنى آخر إن العتابي يقول إن ذلك الصديق أصبح لا يمثل لي شيئاً ، وكأنه لم يكن .

وقد أجاد الشاعر تصويره للافتراء على الأمل وتشخيصه لأمله عندما تصوره شاهد زور ، وذلك في البيت الأخير .

ج- عتاب بين الغلظة والرقة :

وهو النوع الثالث من عتاب الأصدقاء وهو الذى يجمع فيه صاحبه بين الشدة والرقة

ومنه أيضاً قول دعبل الخزاعي يعاتب صديقا له :

أما آن أن يُعتـب المذنـب ويرضى المسيء ولا يغضـب
وغـول اللجاجـة غـرارة تجد وتحسبها تلعـب
أبعـد الصفـاء ومحـض الإخـاء يقيم الجفاء بنا يخطـب ؟
وقـد كان مشربـا صافيـا زمانا ، فقد كدر المشـرب
وكنـا نزعـنا إلى مذهـب فسيح فضاق بنا المذهـب

---

(١) معجم الأدباء /: لياقوت الحموي ، ٢٦/١٧ ومابعدها .

ومـن ذا المواتـي له دهـره ومن ذا الذى عاش لا يُنكـب
فإن كنـت تعجـب مما تـرى فما سترى بعده أعجـــب
فعـودك مـن خَـــدع مـــورق ووواديك من علل مخصـب
فإن كنـت تحسبنى جاهـــلا فأنت الأحمق بما تحســب
فلا تك كالراكب للسبـــع كي يُهاب ، وأنت له أهيـــب
ولـو كنت أملك عنك الدفـــا ع دفعت ، ولكنى أغلـــب (١)

ولا تخفى مواطن الرقة واللين والاستعطاف ،وكذلك مواطن السخرية والشدة والتعنيف في هذا العتاب الذى أورده دعبل في تلك القصيدة .

وتبدو ملامح الأسى والحسرة في تلك الموازنة التي عقدها دعبل بين أيام الحب والمودة والألفة والصفاء، وبين ما صار إليه حاله مع صاحبه من البعد والقلى والجفاء ، وقد أجاد الشاعر تصوير ذلك عن طريق الطباق الذي استخدمه بكثرة في هذه الأبيات والذي زاد المعنى وضوحا وتأكيدا في النفوس ، وقديما قالوا :**وبضدها تتميز الأشياء** ، كما قالوا:**والضد يظهر حسنه الضد .**

ومن ذلك قول المتنبي يعاتب (٢) سيف الدولة الحمداني :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقـــة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظـره إذا استوت عنده الأنوار والظلـــم

---

(١) ديوان دعبل الخزاعي : تحقيق د/ إبراهيم الأميوني ،ط/ د دار الكتب العلمية بيروت ، ط أولى (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨م) .

(٢) شرح ديوان المتنبي ا لبرقوقي: ٤ /٨٠ ، ط/ دار الكتاب ، بيروت (١٩٨٠م) .

وتعتبر هذه الأبيات أول خطافي العتاب لأن المتنبي وان كان ظاهر كلامه يوحي أنه يصف سيف الدولة بالعدل الا انه في الحق يقه يصفه بالظلم ، والمعنى أنت أعدل الناس حين تعاملهم ، لكن هذا الوصف يفارقك أثناء معاملتي .وأنت الخصم وأنت الحكم في تلك الخصومة لأني لا أشكوك إلى غيرك بل أشكوك إلى نفسك فانتصف لي منك ، وكأن المتنبي يقول لسيف الدولة : يا أظلم الناس لأنك خصم وحكم في آن واحد.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية يتهم المتنبي سيف الدولة عن طريق التعريض بأنه لا يستطيع التمييز بين الغث والثمين من الأشياء وأشد من ذلك أنه لا يستطيع أن يفرق بين النور والظلام إشارة إلى منافسيه وخصومه من الشعراء .

ويمضى المتنبي في قصيدته قائلا:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وهو خطأ آخر وقع فيه المتنبي حيث راح يفخر بنفسه فخرا كله تعال وصلف وغرور ناسيا أنه في موقف استعتاب واسترضاء واعتذار وليس موقف استعلاء وزهو وفخار .

غير أن المتنبي قد لجأ إلى الرقة والهدوء المصطنع ليكسب عطف سيف الدولة حين قال:

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

كم تطلبون لنا عيب فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكـــــرم

وفى نهاية القصيدة يعلن المتنبي أن المحبة والمودة هي الدافع الرئيسي لذلك العتاب فيقول :

هذا عتابك إلا أنـــه مقـــة قـــد ضمـــن الـــدر إلا أنـــه كلـم

وكأنه يعتذر عن الشدة والتعنيف واللجاجة التي لجأ إليها في قصيدته ، إلا أن هذا الاعتذار لم يكن خالصا لأنه مشوب بالمن والافتخار والاستعلاء.

ومثاله أيضا قول أبى الفتح البستي يعاتب أحد أصدقائه :

عاجلت ثوب علاك بالتوسيـــخ وخدشت وجه رضاك بالتوبيـخ
وأصخت للواشي فزوق ما اشتهى والحر للواشين غير مصيـــــخ
وأنخت في حزن ركائب صحبتي والصارخ الملهوف غير صريـــخ
يا من تولى المشترى ، تدبيـره حاشـــاك أن تنقـــاد للمريخ (١)

فالرقة بادية في اختياره الألفاظ (عُلاك ، خدشت ، وجه رضاك ، يا من تولى المشترى ، تدبيره ، حاشاك ...) أما الخشونة فتظهر في قوله : (التوسيخ، التوبيخ ،أصخت للواشي ، أنخت ركائب صحبتي) .

وكذا قوله : (والحر للواشين غير مصيخ) فإنه بمثابة توبيخ آخر وتعريض بالمعاتب ، فكأن الشاعر يصف صديقه بانصياعه وراء أقوال الوشاة بالعبودية ، التي تعنى الذلة والمهانة وانعدام الشخصية .

---

(١) يسمى المنجمون المشتري : السعد الأكبر ، لأنه فوق الزهـــرة فـــي الســـعادة ، ونسبوا إليه الخيرات الكثيرة والسعادة العظيمة ، كما يسمون المـــريخ بـــالنحس الأصغر ، ونسبوا إليه البطش والقهر والظلم والغلبة ، راجع / أبو الفتح البستي حياته وشعره ، ص ٢٤١ .

المبحث الثالث

آراء الشعراء والنقاد في عتاب الصديق في الشعر العباسي

دار الكثير من الجدل حول مسألة عتاب الصديق لصديقه إذا أخطأ ، حيث ذهب الشعراء في ذلك مذاهب شتى مابين مؤيد ومعارض على نحو ما سنبينه في السطور التالية :

أولا:**المؤيدون** الذين يرون ضرورة العتاب وحجتهم أن العتاب دليل المحبة وأمارتها ، وتركه علامة البغض والكره والقلى ، ومن ذلك قول العباس بن الأحنف :

لولا محبتكـــــم لما عاتبتكـــم ولكنتـم عندي كبعض النـاس (١)

ومنه قول الشاعر العربي القديم :

يعاتبكـم يا أم عمر محبكـــــم ألا إنما القالي الذى لا يعاتـب (٢)

وكذلك قول الشاعر :

أعاتب ذا المـودة من صديـــــق إذا ما رابنـي منـه اجتنـــاب

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف ط / بيروت للطباعة والنشر(١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م) ص ١٨٥ومختارات البارودي ٢٠٣/٤ مطبعة الجريدة بمصر (١٣٢٩ هـ).

(٢) الصداقة والصديق : لأبى حيان التوحيدي ، ص ١٩٨ .

إذا ذهب العتـــــــــاب فليس ود ويبقى الود ما بقى العتـــاب[١]

ومنه أيضا قول بعضهم :

أبلغ أبا جعفـر عنى معاتبـــة وفي العتاب حياة بين أقـــوام [٢]

فقد جعل الشاعر للعتاب منزلة عظيمة في نفوس الناس وفي حياتهم ، بل جعل العتاب سببا للحياة بل جعله الحياة نفسها وقد أصاب في التعبير عن ذلك حين نكر كلمة (الحياة) التي تفيد التعظيم .

ويقال " ظاهر العتاب خير من باطن الحقد " [١] ، ويقال أيضاً : " من لم يعاتب على الزلة فليس بحافظ للخلة " .[٢]

فالعتاب في نظر هؤلاء دليل المحبة، وتركه إذهاب للمودة.

على أننا لا نوافقهم في هذا الرأي ، فمتى كان العتاب دليلاً على المحبة والمودة ؟ وكيف يكون تركه أمارة البغضاء والشحناء ؟ فإن الإنسان قد يخطئ صاحبه ومع ذلك فهو لا يعاتبه بل يغض الطرف عن معايبه ، لعله يعود في يوم من الأيام إلى سابق مودته وقديم ألفته ؛ فعن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال :" **حبك الشيء يعمي ويصم** " أراد أن حبك للشيء يعميك عن مساوئه ، ويصمك عن استماع العزل فيه .

---

(١) لسان العرب الجزء التاسع : مـــادة (عتـــب) ص ٢٩ ، ومعجـــم مقـــاييس اللغـــة : ٢٢٧/٤ .

(٢) اللطائف والظرائف : لأبى نصر المقدسي ، تقديم د / عبد الرحيم يوسف الجمل ط / مكتبة الآداب بالقاهرة (١٩٩٣ م) ص ١١٦ .

(١) المرجع السابق : الصفحة نفسها .

(٢) المرجع نفسه: الصفحة ذاتها .

ولله در القائل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلةولكن عين السُّخط تبدى المساويا [١]

والعتاب في نظر الشريف الرضي شفاء للغل ، وتضميد للجراح حيث يقول :

أقول لهمتي لما أبت لي معاتبة الملول على الوصال
أعاتبه لعل العتب يشفي وإن كان الزعيم بكسف بالي
ولم لم يبلغ العتبى بقول لعاتبناه بالبيض الصقال[٢]

وقيل أيضاً : " العتاب خير من الحقد ، والعتاب حدائق المتحابين ودليل على بقاء المودة " .

وقال بعض الأدباء : " العتاب ثمار الأوداء [١] ، ودليل الضن بالأخوة ، وحركات الشوق ، وراحة الواجد ، ولسان المشفق " وقال بعضهم : " العتاب علامة الوفاء وحاصة [٢] الجفاء ، وسلاح الأكفاء".

فإن منازع الناس المختلفة قد تؤدى وتعارض وسائلهم وأهدافهم ، إلى خلاف بينهم يشتد حتى يبلغ العداوة ، ويرق بين ما تجمعهم آصرة قرابة أو ألفة صداقة ، أو اشتراك مصلحة ، فيفيئون

---

(١) هو عبد الله بن معاوية ، راجع / جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ٢٨٨/١ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) .

(٢) ديوان الشريف الرضي : المجلد الثاني ص ٢٣٤ ط / دار بيروت للطباعة والنشر(١٤٠٣ هـ /١٩٨٣م) .

(١) الأوداء : جمع ودود وهو المحب .

(٢) الحاصة : داء يتناثر منه الشَّعر ، راجع زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني ٣٨٦/١ ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م .

إلى ظل الصفاء يشفون به أنفسهم مما أصابها من ضر ، ويعيدون إلى أنفسهم الصفاء والود [١] .

ويرى البستي [٢] أن العتاب بين الأصدقاء ضروري حيث يجب تنبيه الصديق إذا أخطأ وتذكيره بالواجب عليه ، وتوجيهه الوجهة السليمة إذا ما قصر في أمر من الأمور ، وليس ذلك بعيب فإن السيف قد يصدأ ويحتاج إلى صقله من حين لآخر حتى يحتفظ بقوته وصلابته وكذا الصديق .

ذكِر أخاك إذا تناسى واجباً أو عَنَّ في آرائه تقصير
فالرأى يصدأ كالحسام لعارض يطرا عليه وصقله التذكير [١]

وقد شارك بعض الشعراء المحدثين الشعراء العباسيين في ذلك فهذا أحمد شوقي فيرى أن العتاب حَرِىٌّ بين المحبين الأصفياء ، حتى لا يعكر صفو حياتهم كدر ولا تشوبه أية شائبة حيث يقول :

أما العتاب فبالأحبة أخلقُ والحب يصلح بالعتاب ويصدق [٢]

ويذهب (أحمد الزين) إلى أن في العتاب إبقاء للمودة ودواماً للمحبة وترسيخاً للصحبة فيقول :

لا تترك العتب لمن تصاحبه إنك تستبقي الذى تعاتبه [١]

---

(١) الشريف الرضي حياته ودراسة شعره ، د / عبد الفتاح محمد الحلو ، ص ١٩٧ ط دار هجر للطباعة ، الطبعة الأولى (١٩٨٦م / ١٤٠٦ هـ) .

(٢) هو أبو الفتح على بن محمد بن الحسين بن يوسف البستى ، عاش في القرن الرابع الهجري حيث ولد في نحو العقد الثالث من هذا القرن ، وتوفى مع مغيب شمسه حوالي سنة ٤٠٠ أو ٤٠١ هـ .

(١) أبو الفتح البستى حياته وشعره : د / محمد مرسي الخولي ص ٣٤٧ ، ط / دار الأندلس الطبعة الأولي يناير ١٩٨٠م .

(٢) ديوان شوقي : شرح د / أحمد الحوفي ج ١ /٤٨٤ ط / دار نهضة مصر ، د/ ت .

وتلمح الاعتدال في رأى أحمد الزين، حيث ذهب إلى أن العتاب يصفى النفوس من الكدر مما يعمل على إبقاء المودة وفي الوقت نفسه لم ينف المودة والصدق والمحبة عمن لا يعاتب كما فعل سابقوه .

كما بيّن (الزين) أن الصحبة والصداقة في حاجة للعتاب تماماً كاحتياج الأرض للسحاب ، حيث يقول :

وحاجة الإخاء للعتب كحاجة الأرض إلى السحاب [٢]

على أن المتنبي قد ذهب الى عدم عتاب الجهال ومن لايجدي فيه الكلام شيئا ، وذكر المتنبي أن في عتاب هؤلاء عظيم البلاء حيث قال :

ومن البلية عذل من لا يرعوى عن جهله وخطاب من لا يفهم [١]

ويشارك (بشار بن برد) المتنبي الرأى في أنه لا تجب معاتبة الجهال ، لأنهم لن يدركوا معنى هذا العتاب ، إذ يقول:

فمن عاتب الجهال أتعب نفسه ومن لام من لا يعرف اللوم أفسدا [٢]

وينبغي عدم الإكثار في العتاب أو الإلحاح فيه ، بل يجب أن يكون العتاب ليناً خفيفاً حتى لا يكدر صفو الإخاء ولقد صدق الشاعر في قوله :

---

(١) ديوان أحمد الزين : ص ١٧١ ، ط / لجنة التأليف الترجمة والتأليف والنشر (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م) .

(٢) ديوان أحمد الزين : ص ١٦٣ .

(١) شرح ديوان المتنبي ، لنخبة من الأدباء ، ص ٢٧٥ ط / دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (١٩٩٢م) .

(٢) ديوان بشار بن برد : ٤٣٨ ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، د/ت .

عنـف العتـاب ملجـــــة فتوقَّ مـن عنـف العتـاب
واستبـق خلـــة من يلـــو م فذاك أدنى للإيـــــاب
واصفح عن الأمـــر الـــذي علاتـــه هتـك الحجـاب (١)

وأحسب أن الشاعر- هنا - لا ينهى عن العتاب كلية ، وإنما ينهى عن المبالغة فيه ، حتى لا تنصرم حبال المودة والإخاء ويدوم الحب والصفاء لئلا تزداد الهوة بين الأصحاب والأصدقاء

وفي نظر أبى الأسود الدؤلي أنه لا مانع من العتاب شريطة أن يكون عتاباً رقيقاً لا غلظة فيه ولا جفاء حيث يقول عن نفسه وصديق له :

فعاتبتـــه ثـم راجعتـــــه عتابـاً رقيقـاً وقولاً أصيـلاً
فألفيتـه غير مستعتـــــب ولا ذاكراً اللـه إلا قليـــلاً (١)

ولا يمانع البستي في عتـاب الأصدقاء ، أو العتاب عموماً ، بيد أنه يشترط أن يكون عتاباً خفيفـاً تدريجياً ، لا يؤلم ولا يحدث شرخاً في جدار الصداقة والمحبة والمودة حيث يقول :

قل للفقيـه ليس يعـــدم من حلو العتاب ، ومر العتب تمزيجاً
إذا فطمت امرأ من عادة قدمت فاجعل له يا عقيد الفضل تدريجاً
ولا تعنف إذا قومـت ذا عـوج فربما أعقب التقويم تعويجـا (٢)

فالعنف واللجاجة غير مطلوبة في العتاب حتي لا تأتي النتيجة على غير المراد (فلربما أعقب التقويم تعويجاً) على حد قول الشاعر.

---

(١) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي : ص ١٧٦ .
(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس : ص ٢٢٧ واللسان مادة (عتب) ٣٠/٩ .
(٢) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ص ٢٣٧ وما بعدها .

وقد استطاع الشاعر إن يقنعنا برأيه عن طريق ضربه لنا المثل الرائع المعاش وهو صورة الصبي الرضيع الذي تريد أمه فطامه ، وبالطبع يكون ذلك على مراحل وليس مرة واحدة ، وكذلك الحال مع المعاتب الذي اعتاد على أمر ما فلن يستطيع تركه بمجرد كلمة واحدة أو عن طريق التعنيف وإنما يكون ذلك بالتدريج والتلطف في الخطاب والاقناع.

وعلى حد قول الدكتور أحمد بدوي : " وباب العتاب في الشعر الغنائي صالح للحياة في كل عصر ، مادامت هناك صداقة يأسو كلومها القول الجميل ، لأنه قديــر على أن يمحو ما قد يكون في النفس من ألم يعكر صفو الصداقة وحلو أيامها " . [١] . فكثرة العتاب يورث الغم والعداوة والبغضاء في النفوس ، ومن ثم فإن ترك العتاب أو اللين والتلطف فيه أبقى للمودة وأحفظ للإخاء

وقد تأثر بذلك بعض الشعراء المحدثين من أمثال أحمد الزين الذي قال:

لا تكثر العتاب فيما أساء فإنه يكـــدر الإخـــــاء

أولى فأولى أن تقل العتبــا إن الحيا إن زاد عاد جدبــا [٢]

والشاعر هنا يضرب لنا مثلاً توضيحياً حيث يوضح أن الإكثار من العتاب قد يمحو الود بين الأصدقاء والأحباب ويأتي بنتيجة عكسية ، تماما كالمطر بالنسبة للأرض فهو نافع إن كان معتدلاً ، ولكنه إن كثر وزاد عن حده ضر وأفسد .

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب : ص ٢٦٨ .

(٢) ديوان أحمد الزين : ١٦٣ ، والحيا : بمعنى المطر .

ثانيا:المعارضون للعتاب :

وهم الذين يرون أنه لا ضرورة للعتاب مطلقاً لعدم جدواه إذ لا فائدة منه ، ولا نتيجة له .

أنظر إلى هذا الشاعر وهو يقسم لصديقه بأنه ما ترك العتاب لبغضه إياه ، وإنما لعلمه علم اليقين بأنه لا فائدة له ، ولا نفع منه حيث يقول :

وحقك ما تركي عتابك عن قلى ولكن لعلمي أنه غير نافع .. [١]

فإذا وجد الإنسان أن عتاب صديقه لن يجدي ، ولن يأتي بنتيجة مرجوة ، فالأولى له عدم العتاب ، والبعد عن هذا الصديق.

وقد قال أبو الحسين الناشئ الأصغر[١] :

إذا عاتبت الملول فإنما أخط بأقلامي على الماء أحرفا

فهبه ارعوى بعد العتاب ، ألم يكن تودده طبعاً ، فصار تكلفا [٢]

والملول هو : سريع التغير ، دائم التنكر ، والمعنى أنه لن يجدي عتاب الصاحب الكثير الملل الذى لا يثبت على صحبته ، وأن هذا العتاب لن يؤثر فيه ، وأنه بمثابة الحروف المكتوبة على الماء ، حيث لا يبقى لها أثر .

---

(١) الصداقة والصديق : ص ٢٠٨ .

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : لأبي منصور الثعالبي، ج ١ ص ٢٨٨ ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) .

(٢) ارعوى : كفَّ ورجع .

ولو فرض – جدلاً – أن هذا العتاب أثَّر في هذا الصديق الملول ، فإنه لن يؤمن جانبه ، لأن مودته صارت متكلفة مصطنعة ، ومثل هذه المودة لا تصمد ولن تدوم ، بل سرعان ما تتلاشى وتزول .

يقول القاسم بن محمد الكرخي :

" ...شر القول ما لم يسمع ،ولم يكن لقائله فيه منتفع .." (١)

ويرى آخرون عدم العتاب التماساً للعذر ، وأملاً في العودة إلى الود والحب والوئام .

يقول سالم بن وابصة الأسدي (الشاعر الجاهلي) :

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذراً (١)

ويقول ابن الرومي مفتخراً بأنه يتغاضى عن زلات صديقه متناسياً إياها ، أملاً في العودة إلى سابق الحب والود ، ومقابلة للإساءة بالإحسان معزياً نفسه بقلة إساءتهم وكثرة محامدهم .

إني لأغضي عن الزلات مجتنباً ذاكراً إذا كان بعض القول نسيانا
أغضى الجفون عن السوأى مراقبة لما يكون من الحسنى وما كانا
أجزى الأخلاء صفحاً عن إساءتهم إذا أساءوا ، وبالإحسان إحسانا
أذكر النفس مثنى من محاسنهم إذا ذكرت ذنوب القوم أحدانا
وليس ذلك لآبائي ومجدهم لكن لأني اتخذت العدل ميزانا (٢)

---

(١) الصداقة والصديق : ص ٤٢٣ .

(١) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي : دكتور / ج . هيوارث ، طبعة / مكتبة الثقافة العربية ، بيروت ، د / ت ، ص ٥ .

(٢) ديوان ابن الرومي : ج ٣ ، ص ٣٨١ ، ط / الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ،(١٤١٥ هـ / ١٩٨٥م) .

وها هو ذا أبو فراس الحمداني يعلن أنه دائم العفو عن خلانه ، وأنه يقابل السوء بالإحسان الجزيل ، حيث يقول :

ما كنت مذ كنت إلا طوع خلانـــي ليست مؤآخذة الخلان من شانـي
يجني الخليل فاستحلى جنايتـــه حتى أدل على عفوي وإحساني
ويتبع الذنب ذنباً حين يعرفنـــي عمداً ، واتبع غفرانا بغفران
يجنو على وأحنو صافحاً أبـــداً لا شيء أحسن من حان على جان (١)

فالشاعر يفتخر بأنه مطواع لخلانه ، وبأنه لا يعاتبهم على جناية ارتكبوها في حقه ، حتى إنه يجد جناية صديقة حلوة مذاقها، ليس ذلك فحسب ، بل إنه يقابل الإساءة والجناية بالحنو الصفح والغفران والبر والخير والإحسان .

فالعفو والإحسان وعدم عتاب الأصدقاء من الأمور الواجبة التى نبه إليها الشعراء ، يقول أبو الفتح البستي :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهـم فطالما استعبد الإنسان إحسان
وإن أساء مسيء فليكن لك فـــي عروض زلته صفح وغفـــران (١)
أحسن إذا كان إمكان ومقـــــدرة فلن يدوم على الإحسان إمكان (٢)

فالإحسان إلى الناس يستعبد القلوب ويأسرها وكذا العفو عند المقدرة فإنه يقرب الأفئدة ويقوى الروابط بين الناس جميعهم.

---

(١) ديـــوان أبـــى فـــراس الحمـــداني : ط دار صـــادر، بيـــروت الطبعـــة الثانيـــة (١٤١٦هـــ/١٩٩٦م) ، ص ٣٠٠ .

(١) عروض زلته : ظهورها .

(٢) أبو الفتح البستي حياته وشعره : ص ٣١٤ .

ولاحظ قول الشاعر : فليكن لك في عروض زلته صفح وغفران ، حيث يعنى أنه يجب العفو والصفح عن الزلة ساعة وقوعها وعدم الانتظار أو التفكير فيها مطلقاً .

ونقرا (لمحمود غنيم) في العفو عن زلات الصديق وأخطائه وعدم عتابه قوله :

ورب أخ أساء إلى ليلاً أصافحه إذا طلع النهار

ومن لم ينس أو يتناسى مضنى وقد يؤذى ابن آدم الادكار [1]

فغنيم سريع العفو عن أصدقائه ، حتى أنه إذا أساء إليه صديقه ليلاً عفا عنه نهاراً ، وفي البيت الثاني يرسل الشاعر حكمة تريح العقول مفادها أنه يجب على الإنسان أن ينسى أية إساءة ، لأن التذكر لا يجلب إلا الضنى والعذاب والشقاء بينما في النسيان كل الراحة ..

وفي مسامحة الصديق يقول إسماعيل صبري : [1]

إذا خانني خل قديم وعقني وفوقت يوماً في مقاتله سهمي [2]

تعرض طيف الود بيني وبينه فكسر سهمي فانثنيت ولم أرم [3]

---

(١) المجموعة الكاملة لمحمود غنيم : المجلد الأول ص ٧٥٧ ، ط / دار الغد العربي (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م) .

(١) وُلد إسماعيل صبري عام ١٨٥٤م ، وتعلم بالمبتديان والتجهيزية والإدارة ، ثم أرسل إلى فرنسا فدرس الحقوق هناك وشغل منصب القضاء في مصر وترقي فيه حتى صار وكيلاً للحقانية ، وقد شغف بالأدب لذاته ، وكان لرقة طبعه وظهوره على الأدب الفرنسي أثر في رقة شعره وحسن ابتكاره وجمال نقده ، توفي عام (١٩٢٣م) .

(٢) عقه : عصاه ، فوق السهم : جعل الوتر في فوقه ، والمعني: أنه إذا أراد عقاب صديقه تذكر سالف الوداد فعفا عنه .

(٣) راجع ديوان إسماعيل صبري ، ص ١٤٤ .

فالود والحب هما الداعيان لمسامحة الصديق وعدم عتابه أو محاولة إيذائه في نظر إسماعيل صبري .

ويرى أبو سليمان الخطابي أنه ينبغي للمرء أن يجنح إلى التسامح في حقه لأن التسامح من شيم الكرام حيث يقول :

تسامح ولا تستوف حقك كله وأبق فلم يستقص قط كريم [١]

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

والمسامحة والصفح والغفران سبيل العيش الطيب والهناءة والاستقرار في تلك الحياة كما يقول أبو العتاهية :

إذا ضاق صدر المرء لم يصف عيشه وما يستطيب العيش الا المسامح(١)

وما أجمل وأروع ما قاله الشاعر (محمود الوراق) [١] في تعليل صفحه عن المسيء مهما تجاوز في الحد :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وإن عظمت منه على الجرائم

فما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثل مقاوم

فأما الذي فوقي فاعرف قدره وأتبع فيه الحق، والحق لازم

وأما الذى دوني فإن قال صنت عن إجابته نفسي ، وإن لام لائم

وأما الذى مثلي فإن زل أو هفا تفضلت ، إن الحر بالفضل حاكم [٢]

---

(١) استوفي حقه : أخذه بكامله ، أبق " اترك ، لم يستقص : أى لم ينل حقه كاملا ، ص راجع يتيمة الدهر للثعالبي ٣٨٥/٤ .

(١) ديوان ابي العتاهية :ص١١٥

(١) هو محمود بن حسن الوراق (... نحو ٢٢٥ هـ) شاعر مكثر ، وأكثر شعره في المواعظ والحكم والأمثال وله شيء من الغزل ، وشعره الذى وصل إلينا مقطعات قصار ، وله ديوان شعر مطبوع جمعه عدنان العبيدي ببغداد ، راجع الأعلام للزركلي ، المجلد السابع ، ص ١٦٧الطبعة الحادية عشرة (١٩٩٥م) .

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف : للأبشبيهي ١٧٦/١ ، ط / الأضواء للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م) .

فالمسيء في نظر (محمود الوراق) أحد ثلاثة : إما رجل أعلى منه قدراً وإما دونه ، وإما أقل منه ، فإن كانت الأولى فمن الواجب أن يعفو عنه وينسى إساءتـــه ، وإن كان دونه ، صان نفسه عن مقابلة السيئـــة بمثلها ، أما إن كان مثله أو نظيره ، فإنه يتفضل عليه بالصفح والعفو ، وتلك شيمة كل حر .

ونرى شاعراً كعدنان مردم يروض نفسه على الوفاء ، ويطويها على الصفـــح والغفران ، مجتثاً من نفســـه الحقد والقساوة ، متحلياً بالصبر والحلـــم إذ يقول :

لست ممن يحمـــل الحقـد إذا عقنى خـل وخان الأقربونـــا
أغفر الذنـــب وأغضي ناظـــرى عن أخي وإن صرم الحبل المتينا
إن أخي لم يدع عهـدي سفهاً ومضى في غيه كالجاهلينـــا
وقسى قلبـــه عليـه حنقـــاً بعد طول الصبر والحلم سنينا
لم أزل ألتمس الصفح لـــــه وأغش القلب بالأعذار حينا (١)

وهذا شاعر آخر وهو محمد المجذوب يغض الطرف ويتجمل بالتسامى والصبر والعفو إزاء أذى بعض أصحابه ، معتصماً بالحلم والأناة ، فيقول :

أقمت على نفسي رقيبـاً من النهى فلست بآتي الأمر ينكره لبـــــى
وأكرمت نطقي من ملامة صاحـــب تعمد أن يرمي بأسهمه جنبـــــى
كفاني علمي بالذى ضم صـــــدره من الكذب المعروض في صورة الحب

---

(١) ديوان صوت الشباب : لعدنان مردم ص ٦٩ (مخطوط) نقلاً عن أثر الإســـلام فـــي الشـــعر الحديث في سوريـــــة ، محمد عادل الهاشمي ص ٩٣ ط / مكتبة المنار بـــالأردن ، الطبعـــة الأولـــي (١٤٠٦هـــ- ١٩٨٦م) .

ففيم الأسى إن خانني اليوم واحـد من الناس معدود علىَّ من الصحـب
سأغمض طرفي عن أذاهم تكرمـاً إلى أن يموت الصبر في صدرى الرحب
وأترك دنيا النـاس للناس ناعمـاً بدنيا بناها الوحي في عالم الشهب (١)

ولا يخفى أن الشاعر يستلهم قول الله تعالى : { **وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**} (٢) .

وها هو ذا مهيار الديلمي يفاخر بصبره على صديقه ، واحتماله مهما جاوز الحد وأساء إلى صداقته ، فيقول :

وإنى للصبور على خليـــل وإن أزري بخلتـــه المـــلال (١)
وأرجع حيـن تختلف الليالـى ويصبـح ماء قـوم وهـو آل (٢)
إلى وزر أحـط به ثقـــالا من الآمـال وهو له مـــآل (٣)

فمهيار يتجاوز عن أخطاء صديقه ، ويصبر على زلاته لأنه يعتبره الملاذ الآمن الذى يفر إليه حين تدلهم الخطوب وذلك قمة الوفاء.

وكان لذلك صدى في العصر الحديث حيث يفخر إيليا أبو ماضي بأنه يغض الطرف عن زلات صديقه ، وأنه لا يقبل أبداً أن يرد المساءة بمثلهـا ، ويكفي المسيء شعوره بالذنب وندمه على ما اقترفه في حق صديقه ، حيث يقول :

وأحب كل مهذب ولـو أنـــه خصمى وأرحم كل غير مهـذب

---

(١) ديوان نار ونور : محمد المجذوب ص ١٠٨ ، ط / دمشق (١٩٤٧ م) .
(٢) سورة الشورى : ٤٣ .
(١) الخلة : الصداقة .
(٢) الآل : السراب .
(٣) الوزر : الملجأ والمعتصم .

يأبى فؤادي أن يميـل إلـــى الأذى حب الأذية من طباع العقـــرب
لي أن أرد مساءة بمســـــــاءة لو أنني أرضي ببرق خلـــــب
حسب المسيء شعوره ومقالـــــه في سره يا ليتني لم أذنـــب
إنى إذا نـــزل البـــلاء بصاحبـي دافعت عنه بناجذي وبمخلبي
وشددت ساعده الضعيف بساعدي وسترت منكبـه العـري بمنكبي
وأرى مساوئـــــه كأنـــي لا أرى وأرى محاسنـه وإن لـــم تكتـب
وألوم نفســي قبله إن أخطـــأت وإن أســاء إليَّ لـم أتعتـب (١)

ويدعو (محمد مصطفي الماحي) إلى التماس الأعذار للصديق فيقول :

ولابد من عـذر في اتئـــــادة وكم في التماس العذر للناس من رشد (١)

حيث يرى الماحي أن التماس الأعذار للأصدقاء يستل سخائم صدورهم ويشجعهم على معاودة الوصال .

والتماس الأعذار للأصدقاء يستدعى بالطبع قبـول الاعتذار ، ولاسيما إذا اعترف هذا الصديق بخطئه ولم يكن متعمدا ما جناه ، وفي هذا يقول بشار :

إذا اعتذر الجاني إليَّ عذرتُـــــه ولاسيما إن لم يكن قد تعمـــدا (٢)

ويقول ابن المقفع :

---

(١) الجداول : إيليا أبو ماضي ، ط / دار العلم للملايـين ، بيـروت ، الطبعـة السـابعة عشرة ، ١٩٨٦م ص ٩٩ وما بعدها .

(١) ديـوان المـاحي : ص ٢٤٨ ، ط / دار الفكـر العربـي بمصـر (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م) .

(٢) ديوان بشار بن برد ، ص ٤٣٨ ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، د / ت .

" إذا اعتذر إليك معتذر فتلقه بوجه مشرق ، وبشر ولسان طلق، إلا أن يكون ممن قطيعته غنيمة " [١] .

ويقول كذلك :

" لا تعتذر إلا لمن يحب أن يجد لك عذرا ولا تستعينن إلا بمن يحب أن يظفر لك بحاجتك " [٢] .

هذا ، والعتاب مضيعة للوقت – في نظر هذا الفريق المعارض – حيث إن الإنسان إذا لم يتغاض عن زلات صديقه وأصر على العتاب ، فإنه سيقضي حياته كلها في عنت وشقاء ، لقول الشاعر:

والعمر أقصر مدةمن أن يكدر بالعتاب [١]

ولقول الآخر :

ومن لم يغمض عينه عن صديقهوعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب [٢]

ويقول ثالث [٣] :

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير : لابن المقفع ص ١٠٧ ، ط / دار بيروت للطباعة والنشر ،١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

(٢) المرجع السابق : الصفحة نفسها .

(١) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي : ص ١٤١ .

(٢) البيتان لكثير بن عبد الرحمن الخزاعي في الحماسة لأبي عبادة البحتري: تعليق وشرح / محمود رضوان ديوب ، ص ٩٠ ، ط / الكتب العلمية ببيروت ، الطبعة الأولى _١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)

(٣) هو أمير الشعراء أحمد شوقي .. راجع / الشوقيات ١٨٩/١ ط / دار نهضة مصر للطباعة د / ت .

ما في الحيـــاة لأن تعـــا تـب أو تحاسب متســـــــع

وقد عتب حكيم على حكيم ، فكتب المعتوب عليه إلى العاتب :

يا أخي إن أيام العمر أقصر من أن تحتمل الهجر ، فرجع إليه " [١] .

وقديماً قال أفلاطون :

" عمر الدنيا أقصر من أن تطاع فيها الأحقاد " [١]

وفي هذا المعنى يقول سعيد بن حميد :

أقلل عتابك فالبقاء قليـــــل والدهر يعدل تارة ويميـــــل
لم أبك من زمن ذممت صروفـــه إلا بكيت عليه حين يـــــزول [٢]
ولعل أحداث المنيـــة والـــردى يوماً ستصدع بيننـــا وتحـــول [٣]
ولئن سبقت لتبكيـن بحســـرة وليكثرن علـى منـك عويـــل
ولتفجعن بمخلص لك وامـــق حبل الوفـاء بحبله موصـــول [٤]
ولئن سبقت (ولا سبقت) ليمضيـن من لا يشاكلـه لدى خليـــــل
وليذهبن بهاء كـل مـــــــروءة وليفقدن جمالهـا المأهـــول
وأراك تكلف بالعتـــاب وودنـــا صاف عليه من الوفاء دليـــل [٥]
ود بـدا لـذوي الإخاء جمالـــه وبدت عليـــه بهجة وقبـــول
ولعل أيـام الحيـــاة قصيـــرة فعلام يكثـر عتبنا ويطـول [١]

---

(١) راجع : العقد الفريد لابن عبـد ربـه : تحقيـق د / أحمـــــد يسـري العزبـاوي ، ١٧٢/٣ ، ط /دار الإمام على بالقاهرة ، الطبعة الأولى (١٤١٢ هـ/١٩٩٢م) .

(١) الصداقة والصديق : ص ٢٤٠ .

(٢) صروف الدهر : نوائبه .

(٣) تصدع : تفرق .

(٤) الوامق : المحب .

(٥) **تكلف : تولع وتحب حباً شديداً .**

فابن حميد لا يرضى أن يعكر صفو حياته وصديقه شيء أو يشوبها أي كدر لأن البقاء قليل في تلك الحياة ، التي لا تتسع للخصومة والجفاء والعتاب ، ويدعو صديقه ألا يتعجل الفراق والهجران ، فالدهر سيفرق بينهما لا محالة .

ثم يستدر عطف صديقه حيث يذكره بأنه سيكون أول الباكين عليه إذا مات لأنه مثال للصديق المخلص الوفي ، أما إذا مات هو فسوف تكون فجيعة كبرى لأنه لن يجد صديقاً مثله في الوفاء والمروءة وحسن الخلق ..

ويختتم ابن حميد قصيدته بما بدأها به حيث يعلن أن أيام الحياة قصيرة لا تتحمل العتاب ولا الهجر طال أم قصر .

ومن الأسباب التي يراها معارضوا العتاب ، استحالة العثور على الصديق المنزه عن العيوب ،إذ لا يوجد إنسان كامل على وجه الأرض ، فالكمال لله وحده

وها هو ذا الشاعر عبد الله بن معاوية الجعفري يوضح لنا أنه من الخطأ أن تلوم صاحبك إذا أخطأ مرة وتيأس من صحبته ، وذلك لأنك لن تجد صديقاً خالياً من العيوب منزهاً عن النقائص ، مهما حرصت ودققت النظر ، حيث يقول:

لا تيأسن من صاحب وتلومه إن زل زِلَّه

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق ، ط / دار الجيل ، بيروت الطبعة الخامسة(١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) ص ١٦٦ .

مَا مِـنْ أخ لك لا تعـيـــــــب - ولو حرصت - عليه خله [١]

ولله در القائل :

أتطلب صاحبـاً لا عيبَ فيه وأيُّ الناسِ ليس له عُيـــوب [٢]

وفي هذا المعنى يقول البستي :

ارحم ذوى النقـص في عقولـهيزدك مما أفـادك اللَّـــــهُ

ليس الكمال الذي تؤملـــــه إلا لمـن لا إلــه إلا هـــو [١]

فمن كان يريد صاحباً منزهاً عن الأخطاء ، مبرأ من العيوب فلن يجده ألبتة مهما أتعب نفسه وكلفها من المشاق في سبيل البحث عنه، وذلك لأنه لا يوجد إنسان كامل على وجه هذه الأرض ، فالجميع يخطئ ، وما علينا سوى التسامـــح حتى نحافظ على الصديق ؛ وقد صدق الشاعر إذ يقول :

ولئـــن كنت لا تصاحـــب إلا صاحباً لا تزل - ما عاش - نعله

لا تـراه - ولو جهدت - وأنـــى بالذي لا يكون يوجد مثله .. [٢]

ولقد أصاب الآخر حين قال :

عاشر أخاك على ما كان من خلـق واحفظ مودته بالغيب ما وصلا

فأطولُ الناس غماً من يريد أخـــا خلة لا يرى في وده خلـــلا [٣]

حيث يبين الشاعر أن من رام أو قصد العثور على صديق خال من العيوب والنقائص ، أتعب نفسه أشد التعب ، لأن ذلك بعيد المنال .

---

(١) حماسة البحتري : ص ٩٥ وخله بمعنى : خصلة .

(٢) الصداقة والصديق : ص ١٧٥ .

(١) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره وديوانه ، ص ٣٢٧ .

(٢) الصداقة والصديق : ص ١٩٢ ومابعدها .

(٣) المرجع السابق : ص ٢١٠ .

وها هو ذا المغيرة بن جبناء يقول :

خذ من أخيك العفو واغفر ذنوبه ولا تك في كل الأمور تعاتبه
فإنك لن تلقى أخاك مهذباً وأىُّ امرئ ينجو من العيب صاحبه [١]

فالشاعر يؤكد على العفو وغفران الذنوب وعدم عتاب الصديق ، كما يؤكد على استحالة وجود الصاحب المهذب الكامل الخالي من العيوب .

وفي نفس المعنى يقول يزيد بن محمد المهلبي :(١)

من ذا الذى ترضي سجاياه كلُّها كفي المرء نُبْلاً أن تعدَّ معايبه

وفي ذلك يقول أبو العتاهية :

إن في صحة الإخاء من النا س وفي صحة الوفاء لقلة
فالبس الناس ما استطعت على الصبـ ـر وإلا لم تستقم لك خلة [٢]
(٢)

فأبو العتاهية يؤثر مسامحة الصديق صديقه وعدم عتابه ، وقبوله على ما هو عليه حتى لا يتفلت الأصدقاء من حوله وإلا فليعش وحيدا بلا أصدقاء على حد قوله:

ما بقاء الإخاء من متجن يبتغي منك علة ، بعد علة [١]
عش وحيدا إن كنت لا تقبل العذ ر ، وان كنت لا تجاوز زلة[٢]

وفي نفس المعنى يقول الحريري المتوفى سنة (٥١٦ هـ) :

سامح أخاك إذا خلط منه الإصابة بالغلط
وتجاف عن تعنيفه إن زاغ يوماً أو سقط
واعلم بأنه إن طلبـ ـت مهذباً رمت الشطط
من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط ؟ [٣]

---

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب : السيد أحمد الهاشمي ، الجزء الثاني ، ص ٣٣٧ ط / مؤسسة المعارف ، بيروت ، د / ت .

(١) يزيد بن محمد المهلبي : شاعر من أهل البصرة ، توفي ببغداد سنة ٢٦٩ هـ ، راجع ترجمته في الأعلام ١٨٧/٨ وزهر الآداب للحصري ٦٣/١ ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م .

(٢) ديوان أبي العتاهية : ص ٣٧٣ .

(٣)المتجني : من تجنى علي ، ادعى الذنب عليه .

أما البستي فينصح بقبول الصديق على علاتــه فقلما وجد الصفاء بغير مذق ، كما لا يخلو السراج المنير مما يعوق إضاءته حيث يقول :

نصحتك جامـل الإخوان طــراً على عذب سقــوه أو أجـاج (١)

ولا تـرج الصفـاء بغير مـــذق فلا يخلو السراج من السناج (٢)

ويقول أيضاً :

لا تحقرن أخاً وإن أبصرتـــه لك جافياً ولما تحب منافيــاً

فالغصن يذبل ثم يصبح ناضرا والماء يكـدر ثم يرجع صافياً (٣)

ويقول كذلك :

لا ترج شيئـاً خالصــاً نفعـــه فالغيث لا يخلو من العيــث (٤)

فالبستي يحبذ العفو عن زلات الأصحاب وإن جانبهم الصواب فالغصن يرجع ناضراً بعدما يذبل ، وكذلك الماء يعود صافياً بعد الكدر وهكذا كل شيء وتلك سنة الحيــاة ، فلا شيء يدوم على حال واحدة وليس أحد كاملاً سوى الله ، وليس هناك من شيء خالص نفعه ، فلربما شذت القاعدة والواجب تهيئة النفس لهذه المتناقضات .

وفي هذا المعنى يقول محمود غنيم :

---

(٤)ديوان أبى العتاهية : ص٣٧٤ .

(٥) جواهر الأدب للهاشمي : ص ٤٠٧ وما بعدها .

(١) الأجاج : الماء المالح المر .

(٢) المذق : غير الخالص ، السناج : الهباب ، راجع / أبــو الفــتح البســتي ، حياتــه وشعره ، ص ٣٣٩.

(٣) أبو الفتح البستي حياته وشعره : ص ٣٧٥ .

(٤) العيث : الإفساد ، راجع / أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ص ٢٣٦ .

من يطلب الخيرَ محضاً عزَّ مطلبه فإنما فطرةُ الأشياء تأباه (١)

هذا ، ومن الشعراء من يرى ترك العتاب ، وغمض العينين عن مساوئ الأصدقاء حفاظاً على حبال المودة وعري الصداقة ، وفي ذلك يقول أبو رشيد الطائي :

وأغمض للصديق عن المساوي مخافة أن تعيش بلا صديق (١)

فالشاعر يدعو الإنسان إلى الإغضاء عن هفوات الأصدقاء وعدم معاتبتهم مخافة أن يتفرقوا من حوله ، ويعيش أبد الدهر بلا صديق .

وها هو ذا بشار بن برد يرى أنه يجب أن تتحمل صديقك في السراء والضراء على السواء ، وأن تتغاضى عن معايبه ، وإلا فلتعش وحيداً فريداً بلا أنيس ولا جليس ، فيقول :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئتَ ، وأيُّ الناس تصفو مشاربه (٢)

فبشار يرى أنك إذا عاتبت صديقك على كل هفوة ، فلن تجد صديقاً أبداً، كما يرى أن نرضي بالصديق في كل أحواله أخطأ أم أصاب .

---

(١) الأعمال الكاملة لمحمود غنيم : ١٠١/١ .

(١) الصداقة والصديق : ص ٢٣ .

(٢) ديوان بشار بن برد : ٣٠٩/١ ط / مطبة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧ م) تعليق الأستاذين / محمد رفعت فتح الله ، محمد شوقي أمين .

وقد حبب بشار التسامح إلى الناس بقوله : إنك إذا كنت ظمآناً ، ولم تجد إلا ماء عكراً شربت منه مرات وإلا مُتَّ من العطش .

وقد علق الدكتور زكي مبارك على هذه الأبيات بقوله : " إنها خاطبت العقل والوجدان ، إذ يذكر أنك إذا عاتبت صديقك في كل الأمور فلن تلقي الصديق الذى لا تعاتبه ، لأنه يندر أن يخلو صديق من العيوب ، وأنك مضطر إلى إحدى اثنتين : إما أن ترضى الوحدة وإما أن تصل أخاك ، فقد يقارف الذنب مرة ويجانبه مرة أخرى وإن لم تشرب مرارا على القذى ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه في هذا الوجود ! " (١) .

وتتوفر في البيت الأخير من أبيات بشار السابقة قوة الصورة " ويراد بالصورة القوية ما تتجاوز بالعقل معناها الحرفي إلى معانٍ أخرى مجازية وذلك يكون بالتمثيل والكناية والاستعارة من كل ما يفتح أمام القارئ آفاقاً من التفكير أو التخييل أولها: هذا المعنى الحرفي الساذج ، وهو أن يحتمل الإنسان شرب الماء على قذاه أحياناً ، لأنه لا يضمن صفاءه دائماً ، ثانيهما : احتمال الصديق على ما به من عيب ، فلم يسلم إنسان من العيوب وهذا المعنى هو المناسب لأن بشار كان يعاتب ، وثالثها : احتمال السقوط في الحياة وتحمل عنت الدهر فالفوز المطلق غير محتوم " (٢) .

---

(١) الموازنة بين الشعراء : د / زكى مبارك ، ص ٧٦ ، ط / مصطفي البابي الحلبي ، الطبعة الثالثة (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م) .

(٢) الأسلوب : د / أحمد الشايب ، ص ١٩٥ ، ط / مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة د / ت .

وهذه الصورة الخيالية والعبارات البيانية تدلنا على مقدرة الأديب وتملكه من ناصية البيان ، وتجعلنا نشاركه في أحاسيسه ومشاعره ونعيش معه التجربة بكل أبعادها .

وفي نفس المعنى يقول الشريف الرضي :

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه أبى بعد طول الغمز أن يتقوما
تقبلت منه ظاهراً متبلجاً وأدمج دوني باطناً متجهما
كعضو رمت فيه الليالي بقادحومن حمل العضو الأليم تألما
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه أقول عسى ضناً به ولعلّما
صبرت على إيلامه خوف نقصه ومن لام من لا يرعوى كان ألوما
هى الكف مَضٌّ تركها بعد دائها وإن قُطِعت شانت ذراعاً ومعصما
أراك على قلبي وإن كنت عاصياً أعز من القلب المطيع وأكرما
حملتك حمل العين لج بها القذى فلا تنجلى يوماً ولا تبلغ العمى (١)

فالشاعر هنا يتحدث عن صاحبه ويشبهه بالرمح الذى زاغت كعوبه وأبى أن يتقوم بعد طول الغمز ، كما يشبهه بالعضو المريض الذى يؤلم صاحبه ، ولكنه مرجو الشفاء ، فقد يتحمل الإنسان الألم مع وجود العضو ، ولا يرضى بقطعه ولو كان فيه برؤه ؛ لأنه بذلك يشين المعصم والذراع .

كذلك يصور (الرضي) صديقه بالعين التى أصابها القذى وتمكن منها ولا يرجى لها برء ، ولكنها أحسن من العمى في كل حال

ويستمر الرضي في قصيدته قائلاً :

---

(١) ديوان الشريف الرضي : المجلد الثاني ، ص ٣٢٩ ومابعدها ، ط / دار بيروت للطباعة والنشر (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) .

دع العضو مطوياً على ما ذممتـــه ولا تنشر الداء العضال فتندمـا
إذا العضو لم يؤلك إلا قطعتـــه على مضض لم تبق لحماً ولا دما
ومن لم يوطن للصغير مـــن الأذى تعرض أن يلقى أجلَّ وأعظما (١)

فالشريف الرضي يرى أن يقبل الإنسان صديقه على علاته ، وألا يسرف في عتابه ، أو يشرع في مقاطعته ، تماماً كالعضو الذى يؤلم ، فكما أنه لا يجوز أن يبتر في كل حال ، فكذلك الصديق ، وإلا بترت كل الأعضاء وانفض عنك جميع الأصدقاء .

وقد أبان الشريف الرضي عن صورة صديقه بما قدمه لنا من الصور الحسية الرائعة والأخيلة البديعة الممتعة .

فالعدو الكاشح يظهر مودته تمويها وخداعا ، في الوقت الذي يمتلئ قلبه بالحقد الدفين والشر المستطير.

وأرى أن ذلك كله صدى لقول النابغة الذبياني :

ولست بمستبق أخا لا تلمـــه على شَعثٍ ، أيُّ الرجال المهذَّب (٢)

والمعنى : أنه إذا لم تصاحب أخاك على ما فيه من عيب بقيت منفرداً أبد الدهر ، ولم يبق لك صديق ، لأنه ليس هناك من هو مبرأ من العيوب ، أو بمعنى آخر أنه " لن يكون لك صديق ما، إذا لم تغفر خطيئته وتنسى زلته ، وتقيل عثرته ، وتلمه على ما به من عيوب،

---

(١) **ديوان الشريف الرضي : ٢/٣٣٠ .**

(٢) تلمه : تجمعه وتصلحه ، الشعث : التفرق والفساد ، المهذب : الكامل .. راجع / ديوان النابغـــة الذبياني ص ١٨ ، ط / المؤسسة العربية للطباعـــة والنشـــر ، بيروت د / ت .

فليس ثمة على ظهر البسيطة رجل تبرأ من العياب وصار مهذباً لا هنة تشوب خلقه " [١] .

وفي موضع آخر يقول النابغة :

واستبق ودك للصديق ولا تكـــن قتباً يعض بغارب ملحاحاً[٢]
فالرفقُ يُمنٌ والأنــاةُ سعـــادة فتأنَّ في رفق تنــال نجاحاً
واليأسُ مما فات يعقب راحـــة ولرب مطعمة تعود ذباحـاً [٣]

حيث يدعو النابغة في هذه الأبيات إلى عدم عتاب الصديق، والمحافظة على الود والتسامح ، والرفق في المعاملة ، والتأني في الأمور ، وعدم التحسر على ما فات .

على أن هناك من الشعراء من يرى أن الاستغناء عن الصـــديق ، والبعد عنه هو الحل الأمثل بدلاً من العتاب ، مثل هذا الشاعر الذى كتب إلى محمد بن بشار قائلاً :

من لـــم يردك فلا تـــرده لتكن كمـن لـم تستفده
باعـد أخـــاك لبعـــــده وإذا دنـــا شبـــراً فـزده
كم من أخ لـك يا بـــن بشـــار وأمـك لم تلـــــده
وأخي مناسبـــــة يســـوؤك غيبـــه لم تفتقده [٤]

---

(١) النابغة الذبياني : د / عمر الدسوقي ص ٢١٢ ، ط / دار الفكر العربي بمصر ، الطبعـــــة السادسة (١٩٧٥ م) .

(٢) القتب : الرحل الذى يوضع على ظهر الدابة ، الغارب : الكاهل ، أو مابين السنام إلـــى العنق يريد ألا يكون دائم الاحتكاك بصديقه ويحاسبه على الصغيرة والكبيرة .

(٣) الذباح : نبت سام أو وجع في الحلق ، راجع / ديوان النابغة الذبياني ص٢٨ .

(٤) العقد الفريد : لابن عبد ربه : المجلد الثاني : ص ٢٨٨ تقديم وتعليق د/ أحمد يسري العزباوي ، ط / دار الإمام على بالقاهرة ، الطبعة الأولي (١٤١٢ هـــ / ١٩٩٢م) .

والمعنى : إذا أهملك صديقك ، وقلاك وكرهك ، فعامله بنفس المعاملة ، فالجزاء من جنس العمـــل ، بمعنى أن تقابله كرها بكـــره ، وتبادله بغضا ببغض ، وكأنك لم تكن تعرفه من قبل .

ويذهب أبو تمام إلى أنه يؤثر القطيعة والهجر للصديق ، إذا لم تفلح معه الحيل لإصلاحه ، ومن ثم فهو يضرب بالود عرض الحائط حيث يقول [١]:

وأخ بشعت بعرفــه ومذاقـــــه ... ومللت عنف قياده وسياقـــه [٢]

فمنحتُهُ بعد الوصـال قطيعةً ... شَدَّتْ على الزفراتِ عِقْد نطاقِـهِ [٣]

ثم يطلب أبو تمام من ذلك الصديق غير الوفي الابتعاد عنه ، قبل أن يتفاقم خطره ، ويكلفه العناء وواجبات الصداقة التى يحرص أبو تمام على الحفاظ عليها لما جبل عليه من الوفاء النادر ، ذلك أن موت هذا الرجل وهو غير صديق أهون على الشاعر من أحلام مزعجة خوفا مـــن الفراق الذى يمكن أن يحدث بينهما بعد صداقة تتوثق عراها ، حيث يقول :

فاذهب فكم فارقت قبلك صاحبا ... عاينت شخص الجور في حملاقه

لو مُتَّ لم تَعْدِل وفاتك بغتـــةً ... حُلما يخوفني بيـوم فراقِـهِ [٤]

وهناك صنف آخر من الشعراء لا يحبذ العتاب الخفيف ولا القطيعة المطلقة ، ولكنه يباعد بين زياراته حتى يحس الصديـــق ويشعر بما فعله لعله يندم وبرعوي وذلك مثل البحتري الذى قال :

أقول لصاحـب خليت عنـــه ... يدي إذ مل أو سئم اعتلاقى

---

(١) أبو تمام حياتـــه وشـــعره وديوانـــه ، د / عمـــر فـــروخ وآخـــرون : ط / المكتبـــة الحديثـــة بيـــــروت الطبعة الأولى (١٩٨٨م) ص ٥٥ .

(٢) بشع بالأمر : ضاق به ذرعاً .

(٣) القطيعة : الهجران ، والنطاق : ما يشد به الوسط .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : إيليا الحاوي ، ص ٨٩٦ ، ط / دار الكتاب اللبناني، بيروت ، الطبعـــة الأولى ،(١٩٨١م) .

فراق من جفاء حال بيني وبينك أم فراق من فـــراق
وإغباب الزيـارة فيه بقيـا ودادك واستراحة عظم سـاق (١)

فهو يرى أن إغبـــاب الزيارة والإقلال منها خير من العتاب ، بل ربما تكون عامـــلاً قوياً في إبقاء المودة والحفاظ على المحبة .

وفي ذلك يقول أبو العتاهية :

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل هجرانه فيلج في هجرانـــــه (٢)

ومن ذلك قول الصافي النجفي الذى يفيض دعابة وظرفا :

وإذا جفاني صاحـــــب لم أستجز ما عشت قطعـــه
وجعلتـه مثل القبـــــو ر أزورها فيكل جمعـــــــه (٣)

فشاعرنا لا يستبيح القطيعة المطلقة ، ولكن يباعد بين زياراته حتى يلفت نظر صديقه إلى ما ارتكبه في حقه من جفاء وقيطعة .

على أن هناك من الشعراء من يجمع هذا كله في مسألة عتاب الصديق حيث يرى عدم القطيعة وعتابه أحيانا عتاباً رقيقاً وأحياناً أخرى يرى عدم العتاب وتجنب الإنصات إلى الوشاة والتماس الأعذار للأصدقاء ، وهو محمد بن بشار الذى يقول :

غلط الفتـــى في قولـــه : " من لم يردك فلا تـــــرده "
من يأنس الإخـــوان لـــــم يبد العتـــاب ولم يعـــده
عاتب أخـــاك إذا هفـــا واعطف بفضلك واستعـــده
وإذا أتـــاك بعيبـــــه واش فقـل : لم يعتمـــــده
فلقلما طلب الفتـــــى عيباً لخـل لم يجـــــده (١)

---

(١) من قصيدة له في عتاب ابن بسطام ، وقد كان أعز أصدقائه ، راجع / ديوان البحتري / ج ٣ ، ص ١٥٢٢، ط / دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ، والإغبـــاب : أن يـــزور القـــوم يومـــا ويتركهم يوماً .

(٢) ديوان أبى العتاهية : ط / دار بيروت للطباعة والنشر (١٤٠٦ هـــ/١٩٨٦م) .

(٣) أحمد الصافي النجفي : زهير الماردينى ، ص ٢٨ ، ط / رياض الريس للكتب والنشر، د/ت .

ثم إن شر الأصدقاء في نظر أبى العتاهية هو الدائم العتاب الذى لا يحفظ عهوده ولا يرعي حقوق الصداقة والإخاء ، حيث يقول :

وشر الأخلاء من لم يزل يعاتب طوراً ، وطوراً يذم
يريك النصيحة عند اللقاء ويبريك في السر ، برى القلم [٢]

والذي نرتئيه في هذا الموضوع ونميل إليه هو أن يعاتب الصديق صديقه معاتبة لطيفة لينة تنبهه إلى ما جنته يداه ، حتى لا يعود إلى مثلها مرة أخرى ، لأن ترك العتاب يورث الضغينة في النفوس ، ويدع مجالاً للشيطان والقيل والقال ويوسع الهوة بين الأصدقاء ، فلربما كان هذا العتاب بمثابة تصفية للنفوس من الشوائب والكدر .

فالله جل في علاه عاتب حبيبه ومصطفاه ، فقال : { **عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى**}[١] ، وقد نزلت هذه الآية في عبد الله بن أم مكتوم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآيات يقول له كلما رآه مرحباً بالذى عاتبنى فيه ربي . كما قال الله عز وجل : { **عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ**} [٢] وهذا يؤكد ما ذهبت إليه من وجوب التغاضي عن زلات الأصدقاء والأحباب .

وقديماً قالت الحكماء : أنه يجب للصديق على الصديق الإغضاء عن زلاته ، والتجاوز عن سيئاته ، فإن رجع وأعتب وإلا عاتبته بلا إكثار ، فإن كثرة العتاب مدرجة للقطيعة [٣] .

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٢٨٨/٢ .
(٢) ديوان أبى العتاهية : ص ٤٠٢ .
(١) سورة عبس : الآيتان ١ – ٢ .
(٢) سورة التوبة : الآية ٤٣ .
(٣) **العقد الفريد لابن عبد ربه : ٢٨٨/٢ .**

وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه : لانقطع أخاك على ارتياب ، ولا تهجره دون استعتاب [١] .

كما أثر عن أبي الدرداء [٢] قوله : " من لك بأخيك كله ؟ " [١] والمعنى – كما يفسره الدكتور زكي مبارك – [٢] " أن الصديق لن يكون كاملاً بحال من الأحوال ، ولن يكون ملكاً لأخيه من كل جوانبه

وبعد ، فإن العتاب مطلوب ، ولكن في اعتدال وحكمة لأن الإسراف فيه يعتبر إلحاحا ولجاجة ، وصرف النظر عنه يعد تجاهلا للصديق واستهانة به .

وقبل كل هذا أو بعده ، ينبغي أن يعفو الصديق• عن إساءة صديقه ، ويلتمس له الأعذار لقول الله سبحانـــه وتعالى : { **خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ**} [٣]

وفي صحيح البخاري نقرأ : حدثنا يحيي ، حدثنا وكيع ، عن هشام عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير قال أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس .

أما بالنسبة للهجر الذى ارتضاه بعض الشعراء فإنه يجوز بشرطين أولهما أن يكون هدفه استبقاء الود ، ولفت نظر الصديق إلى خطأه ، ثانيهما

---

(١) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٢) هوعويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي ، أبـــو الـــدرداء:(... – ٣٢ هـــ) صحابي من الحكماء الفرسان القضاة ، وفي الحديث: " عويمر حكيم امتى " و " نعم الفـــارس عويمر " .. ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر من عمر بن الخطاب ، وكان أول قاض ، وهو أحد الذين جمعوا القرآن ، وروى عنه أهل الحديث مائة وتسعة وسبعين حديثا ، مات بالشام ، راجع / الأعلام للزركلي ،الجزء الخامس ، ص ٩٨ .

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٢٨٨/٢ .

(٢) الموازنة بين الشعراء : ص ٧٦ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٩٩ .

ألا يزيد ذلك الهجر على ثلاثة أيام لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالســـلام " [١] .

فتحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث إنما هو فيما يكون بينهم من عتب وموجدة ، أو لتقصير يقع في حقوق العشرة ونحو ذلك فهذا يحدد له ثلاثة أيام ليرجع المقصر عن تقصيره ، ويرعوي بهجرته ، فإذا انقضت المدة حرمت الهجرة عليهم ، ويكفى في قطع الهجر السلام [١] .

وأخيراً فإن العتاب لا يكون إلا بين المتحابين حين تمتلئ نفس المحب بأشياء ينكرها من حبيبه ، فينفس عنها بالعتاب الرقيق الباسم ، تطهيراً للنفوس حتى يعود الصفاء من جديد ، وترفرف أعلام المحبة والود والوئام عالية خفاقة في سماء الأخوة والصداقة ..

---

(١) صحيح البخاري : ١٦٨/٤ كتاب الأدب ، باب الهجرة حديث رقم (٦٠٧٧) .

(١) المرجع السابق : ١٦٨/٤ .

الخاتمـة

=====

وبعد ، فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، فقد تم بحثنا بعون الله وتوفيقه ؛ والذي استخلصنا من خلاله النتائج التالية :

- إن عتاب الأصدقاء ، قد كثر وروده في أشعار الشعراء القدماء والمحدثين على السواء ، وقد كانت أفكارهم تتقارب حينا، وتتباعد حينا آخر ، على النحو الذى بيّناه .
- إن العتاب ضروري لإزالة الأحقاد ونبذ العداوة بين الأودَّاء .
- إن طرائق الشعراء في عتاب الأصدقاء تتفاوت ، وتختلف فيما بينهم ، ولعل خيرها هو ممازجة العتاب بالاستعطاف والاعتذار، والتذكير بالود القديم لأن في ذلك إصراراً على بقاء الود ودوامه أبد الدهر .
- إن من الشعراء من كانت له طريقتان في العتاب ، كالبحتري الذى كان يستخدم الرقة والهدوء والاستعطاف في عتاب أصدقائه الأعلي منه منزلـــة ، بينما يستخدم الشدة والتهديد بالمفارقة وذلك في عتابه لأصدقائه الأنداد .
- إنه يجب البعد عن الإلحاح والإكثار في العتاب لئلا يصرم حبل الود بين الأصدقاء .
- عدم معاتبة الجهال أو المعجبين بأنفسهم لأنه لن يجدي فيهم أى عتاب .
- ضرورة أن يكون العتاب ليناً لا قسوة فيه ولا غلظة إبقاء على الأخوة وحفاظاً على الصداقة .

- التماس الأعذار للأصدقاء والصفح عن زلاتهم .
- قبول اعتذار الصديق ، والعفو عن إساءته ؛ ولاسيما إذا لم يكن متعمداً تلك الإساءة .

وأخيرا ، ينبغي أن يعلم الإنسان أن كل أحد يخطئ ويصيب ، فالكمال لله وحده ، ومن ثم يجب قبول الصديق على علاّته وإلا تفرق الأصحاب من حولك .

نسأل الله الإخلاص في القول والعمل ونرجو أن يكون هذا البحث محاولة لإبراز قيمة إنسانية عنى بها أدبنا العربي في القديم والحديث على السواء ، إنه سميع قريب مجيب .

فهرس المصادر والمراجع

====

- القرآن الكريم
- أبو الفتح البستي ، حياته وشعره ، د/ محمد المرسي الحولي ، ط/ دارا لأندلس ، الطبعة الأولي (١٩٨٠م) .
- أبو تمام، حياته وشعره وديوانه ، د / عمر فروخ وآخرون ،ط / المكتبة الحديثة ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٩٨٨م) .
- أثر الإسلام في الشعر الحديث في سورية : محمد عادل الهاشمي ، ط/ مكتبة المنار بالأردن ، الطبعة الأولى (١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م) .
- أحمد الصافي النجفي : زهير الماردیني ، ط / رياض الريس للكتب والنشر د / ت .
- الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ، ط / دار بيروت للطباعة والنشر (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م) .
- الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي : دكتور/ ج هيوارث ، ط/ مكتبة الثقافة العربية ، بيروت د / ت
- أسس النقد الأدبي عند العرب : د / أحمد بدوي ، ط / دار نهضة مصر (١٩٩٦م) .
- الأسلوب : د / أحمد الشايب : ط / مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ، د / ت .
- إيليا أبو ماضي : دراسات عنه وأشعاره المجهولة ، جورج ديمتري سليم ط / دار المعارف بمصر (١٩٧٧م)
- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: السيد أحمد الهاشمي ، ط / مؤسسة المعارف ، بيروت ، د / ت .
- الحماسة لأبي عبادة البحتري ، تعليق وشرح / محمود رضوان أيوب ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
- ديوان ابن الرومي : طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت د/ت.
- ديوان أبى العتاهية : ط / دار بيروت للطباعة والنشر (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) .
- ديوان أبى فراس الحمداني : ط / دار صادر بيروت ، الطبعة الثانية (١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م) .
- ديوان أحمد الزين : ط / لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى (١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢م) .
- ديوان إسماعيل صبري : ط / دار النهضة المصرية ، د / ت .
- ديوان الأمواج : أحمد صافي النجفي ، ط / مطبعة الريحاني ، بيروت ، الطبعة الثانية (١٩٣٩م) .

- ديوان البارودي : محمود ســامـــي البارودي ، ضبط وشرح الأستاذين / على الجارم ، محمد شفيق معروف ،ط / دار الكتب المصرية (١٣٦١ هـــ / ١٩٤٢م) .
- ديوان البحتري: الجزء الثالث ، ط / دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة (١٩٧٧م) .
- ديوان بشار بن برد : ط / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية (١٣٨٧ هـــ / ١٩٦٧م) ، تعليق الأستاذين / محمد رفعت فتح الله ومحمد شوقي أمين .
- ديـــــوان بشار بن برد ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، د / ت .
- ديوان حافظ إبراهيم : المطبعة الأميرية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة (١٩٤٨م) بشرح أحمد أمين وآخرين .
- ديوان دعبل الخزاعي : تحقيق د / إبراهيم الأميوني ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط أولى (١٤١٨ هـــ / ١٩٩٨م).
- ديـــــوان الشريف الرضـــــي : ط / دار بيروت للطباعـــة والنشر(١٤٠٣ هـــ/١٩٨٣م) .
- ديـــوان شوقي : شرح د / أحمد الحوفي ، ط / دار نهضة مصر ، د/ت .
- ديوان العباس بن الأحنف : ط / دار بيروت للطباعة والنشر (١٤٠٦هـــ/١٩٨٦م) .
- ديوان الماحـــي : محمد مصطفي الماحي ، ط / دار الفكر العربي بمصر (١٣٨٨ هـــ / ١٩٦٧م) .
- ديوان النابغة الذبياني ، ط / المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، د/ت .
- ديوان نار ونور : محمد المجذوب ، ط / دمشق (١٩٤٧م) .
- زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني ٤٤٠/٢ ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولي (١٤١٧ هـــ / ١٩٩٧م)
- الشريف الرضي حياته ودراسة شعره : د/ عبد الفتاح محمد الحلو ، ط/ دار هجر للطباعة ، الطبـــعة الأولى (١٤٠٦ هـــ / ١٩٨٦م) .
- صحيح البخاري : الجزء الرابع ، تحقيق د / مصطفى الذهبي ، ط/ دار الحديث بالقاهـــــرة ، الطبعة الأولى (١٤٢٠ هـــ / ٢٠٠٠م) .
- الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي ، ط / مكتبة الآداب بالقاهرة ، د/ت .
- العقد الفريد : لابن عبد ربه ، تحقيق د / أحمد يسري العزباوي ، الجزء الثالث ، ط / دار الإمام على بالقاهرة ، الطبعة الأولي (١٤١٢هـــ/١٩٩٢م) .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لابن رشيق القيرواني ، ط/ دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الخامسة (١٤٠١ هـــ/١٩٨١م) .

- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة لابن سعيد الأندلسي ، ط / دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة (١٩٧٧م) .
- الفروق اللغوية : لأبي هلال العسكري تعليق / محمد باسل عيون السود، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى (١٤٢١ هـ/٢٠٠٠م) .
- لسان العـرب لابن منظور، الجزء الثالث ، ط / دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة الثالثة (١٩٩٩م) ص ٣٠٧ - ٣١٠ .
- اللطائف والظـرائف : لأبي نصر المقدسي ، تقديم د/ عبد الرحيم يوسف الجمل ، ط / مكتبة الآداب بالقاهرة (١٩٩٣م) .
- المجموعة الكاملة لمحمود غنيم ، المجلد الأول ، ط /دار الغد العربي (١٤١٤ هـ /١٩٩٣م) .
- مختارات البارودي : محمود سامي البارودي ، ط / مطبعة الجريدة بمصر (١٣٩٢ هـ) .
- مختار الصحاح : لأبي بكر الرازي ، ط / مكتبة لبنان (١٩٨٦م) .
- المستطرف في كل فن مستظرف : لأبي الفتح الأبشيهي ، ط / دار الأضواء ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٤١٥ هـ /١٩٩٥م) .
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، المجلد الرابع ، ط / دار الجيل ، بيروت الطبعة الأولى (١٤١١ هـ / ١٩٩١م .
- الموازنـة بين الشعراء : د / زكى مبارك ، ط / مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ، الطبعة الثالثة (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م) .
- النابغة الذبياني : د / عمر الدسوقي ، ط / دار الفكر العربي بمصر ، الطبعة السادسة (١٩٧٥م) .